آيت أدَّا

قصة



إبراهيم عبدالجليل الإمام

آيت أودّا

رواية

إبراهيم عبد الجليل الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

آيت أدّا – إبراهيم الإمام

الطبعة الأولى 2015 م.

تصميم الغلاف الفنان المهندس : عبدالحفيظ الثني

رقم الإيداع المحلي : 68/ 2015 دار الكتب الوطنية

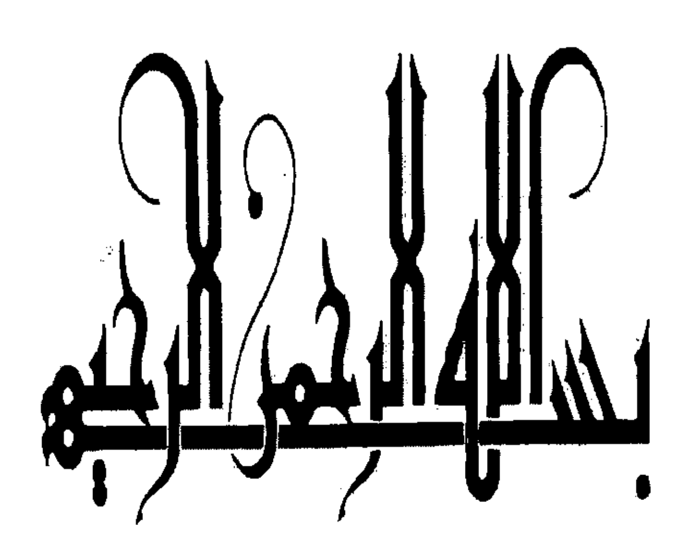
الرقم الدولي الموحد : ردمك ISBN 9789959114549

دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا

هاتف : 9090509 –9096379 –9097074

بريد مصور : 9097074

البريد الالكتروني : nat_lib_libyahotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلى عاصمة التراث العربي 2016

غدامس .

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور .

سورة سبأ آية 13

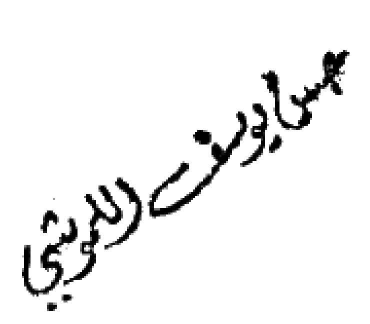
فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ سورة

سبأ آية 14

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا فَقَالَ:

يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ .

رواه الترمذي



1

آيت أدّا .. أو أهل السافلة[1].

إنه الاسم الذي اختاره اوائلنا لتلك الملة التي تشاركنا المكان والزمان .. يقال إنها تشاركنا افراحنا أيضا بل وتقول الروايات المتواترة انهم يتواجدون فيها بكثافة وشراهة وشهوة .. ربما هي ايضا سبب لمعظم همومنا .. بل هي شماعتنا المفضلة لكل ما يصيبنا من كوارث ومصائب ونعزوها لها .. حتى المرض الذي لا مفر لأي كائن حي من الاصابة به بين الفينة والأخرى ..

2

للاسم دلالة على أن هناك ملة أخرى تحمل نقيضه .. تلك الملة ببساطة هي نحن .. بكل جبروتنا وضعفنا .. ذكائنا وحمقنا ..جشعنا ورغباتنا .. منحنا أنفسنا لقباً لم نسأل أنفسنا إن كان

[1] - أهل السافلة : اسم اطلقه اهل واحة غدامس على ملة الجن .

فعلا يليق بنا .. أم أنه من المبالغات التي درجت عليها ملتنا التي نظن أنها خلقت للتمييز على غيرها من الملل في كل شيء .. في غيها ورشدها .. حتى في الاسم الذي عليها أن تطلقه على نفسها .. إنصافا للحق وليس تعصبا لبني ملتي أشعر أن من اختار هذا الاسم لينعت به تلك الملة لم يجانبه الصواب فقط بل إنه قد أصاب الحقيقة كلها وليس كبدها فقط .. على الأقل إذا علمنا أننا نجهل كل شيءٍ عنهم سوى أنهم يعيشون في مكان ما يغلب عليه الظن لا اليقين انه أسفل هذا العالم الذي نحيا نحن على ظهره بوضوح .. فحملنا نحن الاسم المناقض للاسم الذي وسمناهم بهاهل العالية أي آيت انّج .. كما أن طبيعة الأشياء الغامضة أن تكون دائما أسفل نقيضتها الواضحة .. فكنا من الوضوح بمكان يجعل من الاسمين نعتاً صحيحاً لكلتا الملتين .

3

نحمل في ذاكرتنا تراثاً هائلاً من صراعنا الطويل ضد تلك الملة للسيطرة على هذه الواحة التي راق لهم العيش فيها أيضاً

.. كل طرف يدعي أنه الأسبق لاكتشاف المكان وبالتالي هو الأحق في الاستفادة منه كام غير منقوص .. فكان لابد من المواجهة .. يبدو أنها طالت حتى مل الطرفان فجنحوا للسلم والسلامة التي تعقب الحروب دائماً مهما طالت ..

تقاسموا الواحة .. فكان نصيبهم أسافلها وما خفي فيها .. وحاز أسلافنا أعاليها وما ظهر منها .

تعايشوا أزمنة وأحقاباً طويلة..

لكن كعادة المتجاورين تحدث بعض الخروقات بين حين وآخر لتنغيص الحياة .

4

كلنا نشعر أنهم يشاركوننا حياتنا .. كل صغائرنا وكبائرنا مكشوفة لهم .. لكننا بحكم التعود لا نبالي بذلك ولا نشعر بأي حرج لانتهاكهم خصوصياتنا التي نجتهد ونعمل جاهدين على إخفائها فقط على باقي بني جلدتنا ..

معظمنا يخشى الحديث عن ذلك العالم السفلي وساكنيه ويتحاشاه .. حتى أكثرنا شجاعةً وأشدنا بأساً يصاب بشيء من الرهبة بمجرد ذكرهم ..

أما أمثالي فيصابون بالذعر كذلك وليس بالرهبة وحدها بمجرد ذكرهم ..

كنت أعتقد دائما أن عالمهم مثير .. حاولت مراراً أن أرسم له صورة في ذهني وأن أتخيله .. كما كنت أحاول دائما أن أعرف فيما يفكرون ؟ .. وما الذي يشغلهم ؟ .. وكيف يعيشون فيما بينهم ؟ .. ومن يخطط لهم ويقودهم ؟ ..ولماذا نصاب بكل هذا الذعر لمجرد ذكرهم ؟ ..

لا ينسى أحد أن يتعوذ بالله منهم في كل مرة يذكرون فيها .. كانت تلك الرقية كافية للوقاية من عبثهم .. بل تحرص النساء على النفث ثلاثًا في صدورهن قبل التعوذ منهم .. كما أن أعناقنا طوقت بالأحجبة الواقية منهم طيلة طفولتنا ولا يزال البعض منا يحتفظ بتلك الأحجبة حتى بعد أن بلغ من العمر مبلغاً .

لن أنس التقلب طويلاً على الفراش كلما جرى الحديث عنهم ليلاً ليس استجداءً للنوم بل هرباً منهم وخوفاً .. كأنهم يعاقبوننا على الخوض في سيرتهم فيحرموننا من النوم الهني فنتقلب كثيرا على الفراش ما طاب لهم ذلك .

5

دائما ما اتساءل هل الخصام والحروب فقط كل ما كان بين الملتيمن المتجاورتين منذ آماد بعيدة ؟

كنتُ على يقين بوجود شيء ما .. لابد أن هناك شيئاً من التواصل بيننا وبينهم .

أعلم أن هناك من يتواصل خفية معهم لأغراض مختلفة .. لكني أبحث عن تواصل واتصال من نوع آخر .. غير الذي نراه أحيانا في حفلات الأعراس حين يستبد الوجد بأحدهم فيطرب أيما طرب .. يقال حينها أن أحدهم - من تلك الملة - قد تلبسه وحل في بدنه .. ليستعمله للرقص .. فيرقص رقصاً عجيبا تقشعر له أبدان الحاضرين وتطرب له نفوسهم .. يستمر في رقصه على

أنغام الغيطة وإيقاع الدفوف ما شاء حد الشبع بعدها يخر صريع الطرب والوجد .. فيقال بعدها انه قد انتشى طربا فغادر جسد ذلك المسكين الذي حل به صريعا ينز عرقا .

أعلم صعوبة الحصول على أجوبة شافية ودقيقة خالية من الخيال والمبالغة .. كان الفزع من الخوض في سيرتهم يحول دون الحصول على ما يشفي الغليل .. فالشجاعة في خوض هذا الأمر تنقص السائل والمسئول .. فضولي بمعرفة هذا المجهول يغلب على فزعي وخشيتي منهم .

لكني ذات مرة غالبت خوفي وصرعت ترددي وقررت إشباع ذلك الكائن الذي يسكنني المسمى فضولاً .

حملتُ كل اسئلتي تلك بحثاً عمن يميط عنها لثام الغموض وليكن بعدها ما يكون .

لم يكن لدي خيارٌ سواه ليجيب عن اسئلتي الكثيرة إن كان لها أجوبة .. فكثير من الأشياء والأسئلة في واحتي لا أجوبة لها

.. ومن الصعب الجزم بين ما هو من نسج الخيال وما هو من صريح الواقع .

إنه أحد أشهر أولئك الذين يقعون فريسة لسحر الأنغام وأكثر الممسوسين بالوجد وأقدم المصروعين بسهام الطرب .. لا أعتقد أني سأجد خيراً منه للإجابة عن اسئلتي .

إن كان لها عنده أجوبة .

6

كان لابد من أن أتصيد خلوته .. فهؤلاء الكهول لا يبيحون بمكنوناتهم لمن هم في سني إلا في خلوة .. ما عدا ذلك لن تحظى منهم بشيء ذا بال قد يكتفي بابتسامة في أحسن الظروف أما في أسوئها فقد تنال تقريعاً على سوء أدبك .

كان من المستحيل خرق عادة تجاوز عمرها الألف عام ببساطة من أجل الإجابة على سؤال شاب فضولي مهما كان السبب .. تزول كل هذه العوائق في خلوة من الأقران .. فالعادة

تمنع مثل هذا التواصل إلا في الضرورات التي اتفق الجميع على أنها تبيح وتجوز نقض بعض المحرمات والممنوعات .. لا أعتقد أن أسئلتي من تلك الضرورات لذلك كانت الخلوة أنسب للحصول على مرادي .

اصطدته بسهولة ..

كان جالساً تحت ظل زيتونة هرمة .. أنهكتها السنون عطاءاً .. لا يُعرف عمرها .. تبدو منهكة عاجزة عن انتاج الثمار لكنها لا تزال قادرة على منح ظل بارد لكل لاجيء لها ولو كان شحيحا .. ربما كان المكان مجلساً لأسلاف لا يعلم عددهم أحد .. رائحة الشاي تشير إلى قرب نضجه واستوائه .

مروح للجمر بمروحته فازداد توهجاً .. نظر حوله قبل أن يجيبني .

- لا تبدو من أولئك الحمقى الذين يُكذبون ما يرونه في حفلات الغيطة وما يصاحبها من وقوع البعض صرعى الوجد .

حاصرني بنظراته المستفسرة لكني كنتُ أملك من الجرأة ما جعلني ما ممكنني من القول :

- البعض يعتبرها كذلك .. لكني لست ممن يرون هذا الرأي .. لذا جئتك باحثاً عن المزيد لتكتمل الصورة في ذهني .

بدا الارتياح على محياه .. ملأ كوبيَ الشاي .. احتسى من كوبه بلذة .. نظر لي بعينيه ملياً قبل أن يقول :

- نعم هناك روايات كثيرة تتحدث عن مثل هذه العلاقات بيننا وبينهم .

حملت عيناه تعبيراً غامضاً لم أتبين كنهه .

7

توقفت قافلتهم بعد أن نال منها التعب والجهد .. تحلقت حول جبٍ قديم .. بالكاد تبينه دليلهم بعد أن حاصرته الرمال وكادت تخنقه وتغرقه تحت جحافلها التي لا تمل من الزحف في كل اتجاه .. كان ماؤه شحيحاً .. لكنه كان كافياً .. كما أنهم كانوا

ينشدون بتوقفهم شيئاً من الراحة بعد مسيرةٍ طويلةٍ في الصحراء الجنوبية الوعرة .

قبل الغروب لاح شبح رجل يقترب من البئر .. لم يكن من رجال القافلة كما اعتقدوا أول الأمر .. استغربوا وجوده في هذا الخلاء وحيداً .. ما أثار عجبهم ليس ظهوره فحسب بل إنه لا يحمل قربة ماء ولا تبدو عليه آثار العطش ولا ملامح التعب والسفر .. زاد من استغرابهم أنه لم يطلب ماءً ولا زاداً بل طلب قماشاً !

تحلقوا حوله في دوائر كثيرة كان هو مركزها ... أضاف أنه يريده أبيض اللون .. عقدت الدهشة السنتهم عندما قال أنه يريده ليكفن به ميتاً .

8

كانت حمولة القافلة تأن من ثقل مقاطع الأقمشة التي كانت تحملها لأسواق الجنوب في بلاد السودان .. فضلاً على أن

معظمها من ذوات اللون الأبيض .. لكن لم يكن بأحد رغبة في التصدّق بشيء منه .. لم يكن من السهل التخلي عن مترٍ واحدٍ بعد قطع كل تلك المسافة .. فاسعارها أكبر بكثيرٍ من أن تضحي بأمتار من أجل ميت .. فأسواق الجنوب تنتظر بلهفة لالتهام حمولة القافلة من تلك الأقمشة خصوصاً ما كان منها أبيضاً لحاجة تلك الأمم الماسة لما أبيض من الأقمشة لسر لا يعلمه أحد سواها .

حل الظلام .. أوقدت نيران كثيرة حول الجب العتيق .. فشل الغريب في الحصول على مراده .. بدا الحزن والخيبة يرسمان معالمهما على وجهه .. ابتعد مغادراً .

كانت عيناه ترقبه .. لم يغب عن عينيه مذ حل بالقافلة .. لم يكن من كبار التجار ولا صغارهم .. لكنه كان عاملٌ في القافلة .. ناداه .. توقف الغريب عن السير .. التفت لمناديه .. مد له بمقطع كامل من القماش الأبيض الناصع .

9

رشف من كوبه رشفة أتت على مافيه .. كوبي احتفظ بكامل محتوياته على الرغم من رائحة الشاي المغرية .. كان ذهني معلقاً مع حكايته :

- تناول منه المقطع .. هم بالمغادرة .. استوقفه كلام الغريب :

- أعلم أنك لا تملك غيره ..

- إكرام الميت دفنه .

- هذا كرم منك تستحق عليه جائزة .. انتظرني بجوار البئر بعد مغادرة القافلة .

اختفي خلف التلة .. كان في عينيه شيء لم يره من قبل في عيون الآخرين .. كان مقطع القماش يساوي ثروة لا بأس بها لأمثاله .. لامه رفاق القافلة على سخائه المفرط .. كان ذلك المقطع أهم ما في راحلته .. لم يعد هناك داعٍ لإكمال رحلة لن يجني منها سوى التعب .. قرر العودة وحده .. حاول رفاقه

التأثير عليه وإقناعه بمواصلة الرحلة لكنه أصر على الانفصال عن الرحلة والعودة إلى واحة غدامس .

غادرت القافلة .. تركته وحيداً .. اتكأ على جدار البئر المتهالك .. طال انتظاره لقدوم الغريب .. اقترب النهار من الأفول .. قلب الأمر من جديد.. على أوجهه المختلفة .. بدأ الندم يحل محل الرضا على صنيعه .. فكر في تتبع أثره عله يجده .. وصل إلى مكان لقائهما في الليلة السابقة .. بحث على آثار قدمي الغريب .. استغرب كثيراً لعدم وجودها .. كانت آثاره وحدها الباقية واضحة على الرمل كما هي .. شعر بالخوف يتسلل إلى قلبه .. عاد أدراجه .. قرر اللحاق بالقافلة قبل أن تتلاشى آثارها ويضيع في هذه الصحراء الموحشة ..

عند البئر كان الغريب ينتظره إلى جوار بعيره .

10

افتتح كلامه معه معتذراً عن تأخره :

- ما أن انتهينا من دفنه حتى جئت مسرعاً .

انتابه شعور غامض من هوية الغريب .. تأكد له ما حاك في صدره من أنه وقع فريسة تلك الملة التي تناصبهم العداء منذ حلّوا بالواحة ويتحينون فرص الانتقام .. أحد ما من رفاق القافلة أشار لهذا الاحتمال .. لكنه لم يعد يذكره الآن .. لا فائدة من اللوم ولا من التذكر .. إنه بين أديهم الآن على كل حال ...

خياره الوحيد هو المضي في مغامرته .. ليس له خيارٌ آخر .. هذا ما أحس به .. طلب منه أن يتبعه .. اشترط عليه أن لا يتحدث أبداً مهما حدث كما أمره أن لا يلتفت خلفه.. مهما حصل أردف بعدها :

- لا تخف .. لن يلحقك أذى .

لم يكن له خيار آخر .. سار خلفه .. كان الغريب يسير بسهولة فوق الرمال .. لا يترك أثراً خلفه لاحظ ذلك من أول وهلة .. بعد أن سار قليلا قال الغريب دون أن يلتفت له :

- سنذهب إلى مدينتنا .. ملكُنا يرغب في إكرامك على حسن صنيعك .. لكن كن على حذرٍ .. لا تتحدث مع أحد مهما كان السبب .. أنا فقط من عليك أن تتبادل معه الحديث .

أذعن على خوف على الرغم من الكم الهائل من الاسئلة التي تلح عليه ليطرحها ويتخلص منها .

حل ظلام دامس بالكاد تبين فيه رفيق رحلته .. سار مسافة طويلة لا يعلم مقدارها ولا بعدها عن البئر .

فجأة انتصبت بوابة ضخمة أمامهما .. طرقها الغريب طالباً الإذن بالدخول .. انفرج الباب .. كانت المفاجأة صاعقة له .. كان مدخل مدينتهم نسخة مطابقة لمدخل واحتنا الرئيسي .

لم يفق من ذهوله حتى تلقى المفاجأة الثانية .. اختفى الغريب أو بالأحرى تلاشى تماماً دون أن يتفطن له .. انغلاق البوابة جعله أمام خيارٍ واحد .. هو مواصلة مغامرته والمضي فيها إلى النهاية .

لم يجد صعوبة في تبين طريقه .. سار في الشارع المفضي إلى داخل المدينة .

وجد أنه هنا في الواحة بكل تفاصيلها .

- هل أنا في حلم ؟.!

امتلأ رأسه بمزيد من التساؤلات .. لن يجد لها إجابة ما لم يستطلع المكان ويتأكد أنه ليس في حلم .. لم يعد هناك مكان لمزيد من الاسئلة في رأسه .

11

شدتني روايته ..

تفطنت لكوبي المترع من الشاي .. قذفت محتوياته إلى جوفي في دفعة واحدة .. ملأه لي من جديد .. أعاد وعاء الشاي إلى موقده بعد أن أصلح من شأنه .. خمدت جمراته واستسلمت للرماد .. انعشها بمروحته .. احمرت وتوهجت .. قال :

- ما أن قطع عدة أمتارٍ في الشارع حتى تيقن أنه لا يحلم بل يعيش واقعاً .. اكتشف أن مدينتهم نسخة مطابقة لواحتنا في أصغر التفاصيل بل وأدقها .

لم يكن يعرف في أي يوم من أيام الأسبوع هو فيه الآن .. ولا في اي أوقات اليوم .. كانت فتحات التهوية المنتشرة على أسقف الشوارع المغطاة مثل مثيلاتها في الواحة .. لكنه مع ذلك لم يتمكن من تحديد الوقت بدقة .

سار في طريقه .. لاح له من آخر الشارع قادم .. انتظر مروره إلى جواره .. الغريب في الأمر ان القادم لم يأبه له .. الأغرب من ذلك ان ملامحه ليست غريبة عنه .. حتي وقع خطواته وملابسه .. إنه يعرفها تماما .. همّ بأن يناديه ليستفسر منه .. تذكر كلام الغريب وتحذيره إياه بعدم الحديث مع أحد مهما كان السبب .

واصل سيره في رحلة استكشاف المكان .. لم يجد صعوبة في الاهتداء للسوق .. فقد تتبع نفس المسار المشابه لنظيره هنا ..

وصل إلى سمعه أصوات الدلالين والمضاربين والمماكسين .. ولج ساحة السوق بحذر .. كانت صورة مطابقة لساحة تصكو[1] هنا .. كانت وجوه الباعة مألوفة له وكذلك الدلالين ورواد السوق .. تقدم أكثر ليتبين من وجود أهم معلم في ساحة تصكو .. بحث في أحد أركانه عن القادوس[2] .. أهم ما يتميز به سوقنا ... إنها الساعة المائية .. اقترب أكثر من القدّاس الموكل بحساب الوقت .. لوهلة أعتقد أنه يقف أمام القادوس هنا . جلس إلى جواره على حاشية صومعته .. كان يغرف الماء من الساقية أسفل الصنومعة البيضاء .. ويراقب انسياب الماء من الثقب أسفل القادوس النحاسي .. يعيد غرف الماء وملأ القادوس كل ما نفذ ماؤه .. وينتظره حتى يفرغ ما في جوفه في الساقية أسفل الصومعة البيضاء .. يعقد عقدة على سعفة كلما فرغ القادوس

---

1 ـ تصكو تعني بلغة غدامس القديمة السوق أو القصبة أو العمارة .

2 ـ وعاء معدني له حجم معين به ثقب صغير اسفله يستخدم لقياس الوقت كان يستخدم إلى منتصف القرن الماضي .. استفادت منه الواحة في قياس وتوزيع حصص مياه الري .

من ماءه .. إنها نفس طريقتنا في حساب الوقت .. يبدو أنهم استنسخوا واحتنا بكل تفاصيلها .

الأمر المهم الذي استرعى انتباهه هو أن لا أحد من الموجودين في السوق أهتم له .. اعتقد للوهلة الاولى أنهم لا يرونه أو لا يشعرون به ... اتضح له بعد ذلك إنهم يتحاشونه ..

ربما هم أيضا يخشوننا كما نخشاهم نحن .

لا أحد يجزم بشيء كما اسلفت .

12

كانت رائحة الشاي تفوح نضجاً .. ملأ الكوبين.. من جديد ارتشف من كوبه بتلذذ كعادته .. اكتفيتُ برشفةٍ واحدة :

- خرج من السوق بحثاً عن الغريب .. خطر له أن يذهب إلى بيتهم .. بعد أن تبين له يقيناً أن المكان صورة كاملة المعالم من واحته .. في طريقه إلى الحي الذي يقع فيه بيتهم ناداه منادٍ ..

لأول مرة يسمع اسمه .. لأول مرة يكلمه أحد من أهل المدينة .. أشار له المنادي أن يتبعه .. أسرع الخطى نحوه .

سار به في طريق آخر غير الذي كان ينوي السير فيه .. دخل به نفس زقاق حاكم الواحة هنا .. يبدو أن ملكهم أيضا يسكن في نفس المكان المشابه لسكن أشليد[1] الواحة عندنا .. سار خلفه .. حاول أن يتخيل شكل بيت الملك الحاكم هنا .. لم نسمع من قبل بملك بدون قصر وحرس وحجاب .. واحتنا خالية من القصور ولا نستعين بحرس ولا حجاب على أبواب بيوت شلدان وشيوخ الواحة وأصحاب الرأي فيها ...

كيف تصرفوا في هذا الامر ؟

طرق دليله الباب .. جاءه الإذن بالدخول من مكان ما من البيت .. دفع الباب وأشار اليه بالدخول .. دخل وحده .. صعد الدرجات المفضية إلى باحة البيت المسماة عندنا تمانحت .. وجد شيخاً مسناً طاعناً في السن .. لم تكن ملامحه غريبة عليه أيضا

[1] ـ اشليد : شيخ او حاكم أو رئيس بلغة غدامس القديمة . صيغة جمعها : شلدان .

.. ربما كانت ملامح أحد كهول الواحة المتنفذين .. وقف أمامه .. أشار له بالجلوس .. جلس حيث أشار إليه .. أخذ في تأمل المكان .. كانت جدرانه تزخر بالمرايا المختلفة الأحجام محاطة بأوانٍ نحاسية مصقولة براقة .. تأمل النقوش على قوالب الجبس .. تمعن في الرسومات المرسومة بألوان الزنجفور[1] على الجدران .. في الحقيقة كان في بيت من بيوت الواحة .

قطع الكهل عليه رحلة تأمله بقوله :

- نحن عاجزون عن شكرك .. فقد جُدت علينا بكل قليلك الذي تملكه حين بخل الآخرون بمنحنا قليلاً يملكون منه الكثير .

انتابه شعور أن هذا الكهل مستثناً من شرط دليله الذي تلاشى وتركه يهيم في واحة شبيه بواحتهم فقرر تبادل الحديث معه .. رد عليه قائلاً :

---

[1] - الزنجفور كلمة فارسية وهو نوع من الاصباغ تصنع محليا وترسم بها زخارف تزين جدران البيت الغدامسي .

- للموت حرمته وقداسته فعلينا إكرام الميت بدفنه في أحسن صورة ممكنة .

طلب منه أن يشتري ما طاب له من أسواق المدينة وهم سيتكفلون بإيصاله إلى المكان الذي يرغب في الذهاب اليه ولو كان بلاد الواق واق .. فقط عليه أن يلتزم بالشرط الوحيد أن لا يخاطب أحداً.

- أرغب في العودة لواحتي في أقرب فرصة .. لم يعد هناك داعٍ لمواصلة رحلتي .

هذا فقط ما طلبه من ذلك الكهل أشليد وشيخ تلك الملة ورئيسها.

13

وجد في جرابه مالاً كثيراً .. أضعاف ما كان يرجو جنيه من عدة رحلات تجارية شاقة .. بحسبة بسيطة كانوا قد منحوه سعراً خيالياً لمقطعه اليتيم ..

طاف أرجاء السوق .. اشترى ما يحتاجه من السلع من سوقهم العامرة .. كانت عامرة فعلاً بكل ما تحتاجه واحتنا .. لاحظ غياب الأقمشة البيضاء في سوقهم .. لم يجد لذلك تفسيراً .. حمل ما اشتراه على ظهر بعيره استعدادا للمغادرة حين يطلب منه ذلك .

حل ما أعتقد أنه المساء .. ظهر دليله فجأة كما اختفى فجأة .. اعتذر عن تركه له وغيابه عنه .. برر ذلك برغبته أن يترك له حرية اكتشاف مدينتهم لوحده .. اصطحبه معه إلى بيته .. تناولا طعاماً شهياً .. لم يذق له مثيلاً من قبل .. تركه بعدها ليخلد للراحة .. أخذته سنة من نوم .. استيقظ على صخب يصل إلى سمعه من مكان ما .. تبينه بعد لحظات .

- هل تعرف ماذا كان ذلك ؟ ..

لن تتوقعه أبداً مهما شطح خيالك !

صمت تاركا لي فرصة للتخمين .. صب لنفسه كوباً آخر من الشاي .. تلذذ باحتسائه بهدوء ... أشعل ذلك نيران فضولي وأججها حتى بدا ذلك على ملامحي .. قال اخيراً :

- حفلة عرس .

- ما الغريب في ذلك ؟

- الغرابة لم تكن في العرس بل في طريقة الاحتفال .. أساخ سمعه جيداً فتبين صوت الغيطة وإيقاعات الدفوف أيضاً بدت واضحة له.

وقف من مرقده .. تبين اللحن المعزوف أيضا .. إنها نفس ألحان أغانينا .. انتشى .. سرت رعدة في كامل أوصاله.

خرج من البيت بحثاً عن مكان الحفلة .. تتبع الصوت ... لم يجد صعوبة في تحديد المكان .. إنه مثيله هنا .. نفس ميدان الحي الذي يسكنه في واحتنا .. كانت الأجواء حماسية .. اتخذ مكاناً يمكنه من مشاهدة وسماع وتتبع كل ما يجري أمامه .. تجاهله

كل من في الميدان .. لم يبال بهم بدوره فقد اعتاد ذلك .. أخذ منه الطرب مأخذاً عظيماً.. تفحص الوجوه الكثيرة المنتشية طرباً .. كانت وجوهاً لأشخاص يعرفها جيداً وجوه أقرانه وأصحابه وجيرانه ومعارفه .

اختلط عليه الأمر .. عازف الغيطة أيضاً يعرفه وكذلك ضاربي الدفوف .. الراقصون المنتشون وجداً وطرباً استطاع التعرف على معظمهم من طريقة أدائهم للرقصات على الرغم من إخفاء ملامح وجوههم بإحكام برداء جريري كما تتطلب طقوس الرقص عندنا .

تفحص الوجوه .. بحث فيها عن شيء ما يجهله .. كان في عيونهم بريق لا تحمله عيون مثيلاتهم هنا .. شخصٌ واحدٌ فقط لا تحمل عيناه ذاك البريق .. كان سهلاً عليه أن يتعرف عليه أو على صورة مثيله هنا .. إنه أحد كهول الحي .. لم يكن من رواد هذه الحفلات .. ليس لسنه المتقدمة فحسب ولكن لوظيفته المميزة

ومكانته التى تحجر عليه مثل هذا الفعل .. فهو مؤذن مسجد الحي .

فجأة لمح دليله من جديد بين الحاضرين .. أشار له خفية عدة إشارات .. فهم منها طلبه أن يتوقف عن ملاحقة الكهل بنظراته .. حاول ضبط نظراته وتوزيعها بشكل عادل على كل ما في الميدان .. سرعان ما عاد لمراقبته .. هناك أمر ما يلح عليه بمتابعته دون سائر الحضور .. على الرغم من انسجامه مع الالحان المعزوفة والإيقاعات المضروبة لكن هذا لم يوقفه ولم يردعه .. بدا واضحاً أن الكهل أيضاً يستمع للألحان ليس كاستماعه بل كعاشق متيم .. تميل رأسه ذات اليمين تارة وذات الشمال أخرى ... إرتفاعاً وإنخفاضاً تارات أخر .. قدمه اليمنى تلاحق الإيقاعات .. التقت عيناهم لأول مرة .

فجاءة حدث آخر شيءيمكن أن يتوقعه ..

أصابه ما يصيب الممسوسين في مثل هذه الحفلات .. لم يترك مكانه فحسب بل وقاره المعروف عنه أيضاً .. وقف وسط

الميدان تخلى عن رفيقته الدائمة عصاه التي يتوكأ عليها ويهش بها كل ما يعترض طريقه ابتداء من حجارة قد تعيقه في طريقه أو صبي قد يعترضه في مسيره .

خر صريعاً بعد أن قدم وصلة رقص أحمرت لها الأكف تصفيقاً والحناجر غناءً واستحسانًا وتشجيعاً .

بعد ذلك غادر الميدان رفقة دليله بعد إلحاح .. لم يعد يسمع شيئا من تلك الألحان ولا حتى إيقاعات الدفوف .

اختفى كل ذلك عن سمعه .

14

- كان لابد من أن يزور مكاناً بعينه .. لابد أنه خطر بذهنك .. لا يفوت ذلك شاب ذكي مثلك .

- بيتهم ؟

- نعم أحسنت .. إنه المكان الوحيد الفاصل بين الحقيقة والخيال والواقع والحلم .

سار بثقة في أزقتهم بعد أن زال عنه كل ما كان يتوجسه منهم .. لم يبالِ بأولئك الذين التقاهم في طريقه ولا الذين ملئوا المصاطب الحجرية على جانبي الطريق كما اعتاد كهولنا هنا أن يفعلوا .. وصل إلى الزقاق المماثل لزقاقهم في الواحة .. وقف أمام باب بيت .. كان بابه نسخة لا تخطؤها العين من باب بيتهم.

طرقه ..

طال انتظاره للإذن بالدخول .. أعاد الطرق من جديد عدة مرات .. تذكر أن العادة جرت في واحتنا أن لا يطرق الرجال باب البيت بل النسوة وحدهن من يستأذن بتلك الطريقة .. فاستئذان الرجال يكون نحنحة أو مناداة علي أهل البيت وساكنيه .. دفع الباب كعادته مع باب بيتهم بعد أن يأس من إجابة من داخله .

انتظر قليلا في عتبة البيت استجابة من داخل البيت .. استجمع شجاعته .. تنحنح .. تلفت يمنة ويسرة قبل أن يلج بحذر إلى سقيفة البيت الباردة المعتمة .

صعد الدرجات القليلة الفاصلة بين السقيفة وتمانحت[1] البيت بحذر .. دفع الباب الموارب .. توقع أن يجد تمانحت البيت صورة دقيقة التفاصيل لتمانحت بيتهم .. لم يعد يستغرب شيئاً في عالم هذه الملة العجيب .

كانت تجلس في صدر المكان عجوز ترتدي نفس ثوب أمه .. تحيك ثوباً أو ترقعه لم يتبين الأمر جيداً من مكانه .. رفعت إليه رأسها .. هذه المرة كانت المفاجأة أن الوجه لا يحمل أي من سمات وجه أمه كما توقع ..

أشارت اليه بالتقدم ..

تشجع .. تقدم .. أشارت إليه ثانية بالجلوس فجلس :

[1] - تمانحت بلغة غدامس القديمة قاعة استقبال الضيوف في البيت الغدامسي .

- المدينة كلها تتحدث عن صنيعك .. فعلك أثار استغرابنا كلنا .. فمن النادر منكم كل هذا السخاء .

اكتفى بالاستماع فقط كما طلب دليله الغريب وأكده له الكهل .

- هل أعجبتك المدينة ؟ .. يقال إنها نسخة من واحتكم .. لابد أنك لاحظت ذلك .. لابد أنك جائع .. ألست جائعاً ؟.

لم تنتظر جواباً منه .. نادت :

- أحضري الطعام لضيفنا وضيف المدينة .

من درجات السلم الحجرية المفضية لسطح البيت حيث مكان المطبخ نزلت على استحياء .. لم تكن جميلة فحسب بل كانت غادة حسناء هيفاء .. ربما تشبيه وجهها بالقمر فيه إجحاف لذلك الجمال الذي رآه .. أضافت ابتسامتها المرسومة على شفتيها سحراً على جمالها .. وضعت ما تحمله من طعام بين يديه .. جلست إلى جوار أمها على استحياء .. لم يستطع أن يبعد ناظريه عنها .. لم يأبه للطعام على الرغم من أنه بدا له من

رائحته وهيئته لذيذا وشهيا وغريباً .. لقد سلبت لبه .. بل طار صوابه وطارت منه كذلك الوصية التي حرص على المحافظة عليها مذ حل بينهم .. فتح فمه ليتكلم لأول مرة مذ حل بالمدينة العجيبة .

15

احتسى آخر رشفة من كوبه .. غسل الكوبين والسخان في وعاء ماءٍ كان إلى جواره .. استسلم جمره للنعاس فخبى .. قال :

- اللسان كان منذ الأزل آفة .. تحدث الأوائل عن ذلك كثيراً .. تركوا لنا الكثير من الحكم والأشعار التى تذم التسرع في استخدام هذه العضلة .. أما الإسراف في.. استخدامها فعدوه من سالبات المروءة ووصمت صاحبها بالثرثار المهذار وبالحمق .. أكدوا كذلك أنها أسرع وسيلة للهلاك .. كما أنهم مدحوا الصمت وأهله كثيراً وبينوا فوائده الجمة الكثيرة .

أضاف بعد برهة :

- نسي كل ذلك .. نسي وصية دليله .. أراد أن يعبر لها عن امتنانه وشكره .. كانت تلك الكلمة هي الثمرة المحرمة التي أخرجته مما كان فيه من نعيم الاستمتاع بمجالستها والتمعن في قسماتها وحسنها .

وجد نفسه مرمياً إلى جوار فوهة البئر القديم نفسه الذي كان فيه لقاؤهما الأول .. شعر بسياط الشمس من جديد .. تلفع بثوبه ليقي رأسه من حرها .. أخذ يفكر في أمره من جديد .. انتابته الشكوك وهاجمته بشدة .

هل كان كل ذلك حلم جميلاً غريباً أم واقعا لذيذاً ؟

رغاء بعيره أعاده للواقع .. وجده مقيداً على مرمى حجر .. اسرع يتفقده .. وجود البضائع التي اشتراها وبقايا المال على حالها .. كان ذلك دليلاً كافياً ليتأكد أنه لم يكن حالماً ولا واهماً بل واقعاً حقيقياً .

ندم ندامة الكسعي على تسرعه .. لم يعلم كم من الوقت مضى عليه في رحلته إلى تلك المدينة الغامضة .. بحث في كل الانحاء

على إثر يستدل به على الطريق التي عبرها رفقة دليله الغريب .. فشل في الاهتداء لما يوصله لتلك المدينة كما توقع .. فتلك الملة لا تعبث .

عاد ليتكأ على الجدار المتهالك للبئر .. تمنى قدوم الغريب ليعتذر له عن هفوته وزلته.. بل سوف يطلب منحه فرصة أخرى .. استعان في انتظاره باجترار الألحان القديمة .. كان يفضل تلك الألحان التي ترافقها الإيقاعات البطيئة .. فهي تحرك الروح وتؤثر فيه .. أما تلك التي تحتاج لسرعة في الإيقاع فهو ليس من أنصارها .. ليس لأنها لا تملك القدرة على التأثير على الروح كنظيراتها الهادئة بل لأن لها قدرة غريبة على التأثير على الجسد أيضاً فتجبرك على متابعتها ليس سماعاً فقط بل ربما حركةً ورقصاً .. فهو في الظرف الذي يمر به الآن ليس بحاجة لما يطرب جسده بل ما يعينه على تحمل مصابه الذي أوقع فيه نفسه بنفسه .

ليس له خيار إلا الترنيم بما يشجيه ليكون له أنيساً .

استغرب أن الرابط الوحيد بين كل تلك الألحان التي دندن بها أنها تتحدث عن نفس الملة التى كان ضيفاً عندها .. وغادرها أو طرد منها بتسرعها وتهوره واستهتاره بالوصية .. تذكر الحكمة القائلة : من دلائل الحمق الاستهتار بالوصايا .. لم يسمع من قبل وسيلة أو عقاباً على ذلك أكثر من الندم .. لأول مرة يرى في الندم عقوبة .. كان يظن إلى وقت قريب أن الندم كفارة على الوقوع في ذنبٍ ما .. لكنه الآن يجده أشد عقوبة يمكن للإنسان أن يتجرعها .. إنه العقاب الوحيد الذي يمس الروح .. أما ما يمس البدن فأمر تحمله أهون بكثير .

16

حل الغروب .. اختفى القرص الذهبي الملتهب .. ارتفع قرينه الفضي البارد .. بحسبة صغيرة اكتشف أن كل تلك الاحداث قد حدثت في يوم واحد .. أخذته سنة نوم .. استيقظ ليجد الظلام قد سيطر على كل الصحراء .. استغرب اختفاء القمر من السماء ..

شعر بالخوف لأول مرة منذ غادر مدينتهم مطروداً .. ربما الوحدة وغياب الأنيس زاد من جرعة خوفه ..

تذكر أنه لم يتناول شيئاً منذ وقت .. لم يكن متيقناً من ذلك الطعام الذي أكله هناك إذا كان حقيقة أم وهماً توهمه .. تحسر على عدم تذوقه للطعام الذي وضعته الحسناء بين يديه.. قبل أن يتفوه بكلمته التي كانت سبباً في طرده وحرمانه من وجبة بدت له شهية في حينها وهي الآن أشهى بكثير بعد فقدها ..

شعر بشيء ما في قلبه يجهله لم يشعر به من قبل .. كان يعلم أن سببه تلك الحسناء ...

زفر بحرقة .. تحسّر في ندم .

- كان عليك أن لا تنسَ الوصية .

كان الغريب واقفاً هناك .. زال روعه ..

أسرع نحوه .. وقف قبالته .

- ملتنا جُبلت عِلى النسيان منذ عهد أبينا الأول آدم .. لا تنس أن النسيان كان سبب خروجه من النعيم ليهبط إلى الأرض لينعم فيها بكل هذا الشقاء .

- ربما العجلة سبب آخر لما أنت فيه الآن .

- أعترف بذنبي .. هل لي من رجعة.

- لات حين مندم .

- أعدك أن أكون أكثر حرصاً وأقل عجلة .

- لات حين مندم .

تبين بريق عينيه الغريب على الرغم من كثافة العتمة .. أردف قائلاً :

- نلتَ ما لم يناله أحد من بني ملتك .. كشفنا لك عن مدينتنا .. منذ قرون لم ينل هذا الشرف إنسي .. لكنكم قوم تستعجلون .

- لكننا لا نمنعكم من واحتنا كما تفعلون .

- ربما لأنكم لا تقدرون على منعنا من الاختلاط بكم ..

- ألا ترى اننا الأكثر تسامحاً منكم ؟

- لم أنس أنكم أيضاً أكثر شراسةً منا وأكثر إفتراءً علينا .

- هذه طبيعة الحروب .. كلما خِفتَ من خصمك كنت أكثر شراسة عند مواجهته وأحوج للافتراء عليه .

- ما سبب كل هذا الخوف لينتج كل هذه الشراسة ؟ .

- الغموض .. نحن ربما لا نراكم لكننا نشعر بكم وبتأثيركم علينا سلباً وإيجاباً ..

- لكنكم لا تذكرون منا إلا ما كان سلباً.

- ربما هذا أيضاً ما جبلنا عليه .

- النكران ؟

- بل نسيان كل ما كان جميلاً ولو طاول الجبال بمجرد حدوث ما يعكر النفس .. للفرح ألف أب ولكن للشر أبٌ واحد .

- لماذا نحن فقط المسمار الوحيد الذي يحلو لكم أن تعلقوا عليه كل سيء في دنياكم ؟.

- لأنه الجواب الوحيد الذي لا يمكن تكذيبه .. والقول الوحيد الذي يجعل منك بطلاً في نظر الآخرين .

- كما يصعب إثباته ويستحيل نفيه .. لا أخفيك سراً أن ملتنا أيضا يحلو لها أن تعلق كل فشلٍ تقع فيه على بني ملتكم .

- ها نحن نتبادل التهم والحجج والمسامير هه ههه ههه.

- نتبادل الخوف كذلك .

- والشراسة في المواجهة .

- والافتراء .

جلس بعد أن نال التعب منه .. طرح أهم سؤال قد يخطر على بال أي فردٍ من ملتنا:

- أرغب أن تشفي غليلي وتروي ظمئي للمعرفة .. ماذا تعني لكم واحتنا ؟

يبدو أنه كان ينتظر هذا السؤال تحديداً فلم يتأخر في الرد فقال :

- كل شيء .. تعني لنا كل ما رأيت وأكثر .

17

كان يروي كل تلك التفاصيل بدقة من كان طرفا في أحداثها .. استبعدت أن يكون ذلك من نسج خياله .. لكن نقله لأحداثها بهذه الدقة أثار ريبتي .. لا أنكر أنه استطاع أن يشدني لمتابعة روايته وعدم مقاطعته بسؤال أو استفسار إلا بما يخدم سرده ولا يقطع الخيط الرابط بين ذاكرته وروايته .. كنت منصتاً جيداً ومتابعاً حذقاً . آثرتُ أن أترك أسئلتي المهمة لوقت لاحق .. المشكلة إنها تكاثرت وازدحمت وتزايدت وتتغير كلما قطع

شوطاً في سرده .. لا أنكر أنه شدني بوثاق محكم لا فكاك منه حتى الوصول للنهاية .. واصل سرده لوقائع أغرب رحلة سمعتها في حياتي :

- في فجر اليوم التالي كان يقف أمام البوابة الكبيرة للواحة ..

- بهذه السرعة !

- بعد أن يأس من أن يحظى بفرصة أخرى للعودة لتلك المدينة الغريبة لم يعد أمامه من سبيل سوى أن يشد الرحال في إتجاه الواحة ..

يقول بعض الرواة أن جليسه ساعده في قطع تلك المسافة بأن حمله وبعيره أثناء نومه ليستيقظ ويجد نفسه أمام البوابة الكبيرة .

آخرون يميلون إلى أن الغريب قال له أن هناك قافلة لتلك الملة ستمر بجوار الواحة في طريقها نحو الشمال ... أضافوا لرواياتهم أنه طلب اليه أن يربط بعيره في آخر القافلة وأن لا يفتح فمه بالكلام مهما حصل ومهما سمع أو شاهد حتى يصل إلى

غايته .. فكان أن توقفت القافلة أمام الأسوار ليفك بعيره منها وتواصل هي رحلتها إلى مكانٍ مجهولٍ ..

اتفق الرواة على أمرٍ واحد هو أنه وصل صبيحة اليوم التالي للواحة .. قطع مسافة عانت قافلتهم الأمرين حتى اجتازوها من الأهوال أسابيع من الوقت في ما يشبه المعجزة في ساعات قلائل ربما أقل من ذلك بكثير ...

أمي تقول قي روايتها للقصة حول زيارته لتلك الملة في مدينتهم : أنهم أدخلوه هنا لهذه الواحة وليس لأي مكان آخر .. كل ما فعلوه هو أنهم نقلوه من البئر إلى داخل واحتنا .. تدافع عن فكرتها قائلة .. مثل هذا البناء لا يمكن لكائن مهما بلغ من القوة والعبقرية من تقليده فما بالك ببنائه ..

لكن جدتي تخالفها في ذلك بل وتصر على أن لتلك الملة من القدرات ما يمكنها من بناء وفعل ما تشاء ولن تعجز عن تقليد هذه الواحة بدقة ومهارة وإتقان .

قلت مقاطعاً لأول مرة :

- في الحقيقة أجد نفسي أرتاح أكثر لرواية أمك أكثر ربما ذلك لأسباب تتعلق بتعصبي لواحتي ههههه ههههه.

أضاف :

- لم ينتظر كثيراً أمام البوابة .. فبعد صلاة الفجر كان يقود بعيره المثقل داخل الشوارع المعتمة الخالية .

التقى ببعض العائدين إلى بيوتهم من أداء صلاة الفجر.. أثار وصوله استغرابهم الشديد .. كان ذلك واضحا على وجوههم .. استوقفوه لا ليسلموا عليه كما تبادر لذهنه بل ليعرفوا منه سبب عودته مبكراً من رحلة يعلمون يقينا أنها تستغرق وقتاً طويلاً وطويلا جدا.. أكثر بكثير مما قضاه .. كان جوابه مخرسا:

- جئت رفقة قافلة قوم لا يعيرون الزمن حساباً ولا المكان اعتباراً.

لم يكلف نفسه عناء إزالة حيرتهم .. اكتفى بالابتسام .. تركهم في حيرة أكبر .. سار في طريقه .

توجه إلى بيته أولا.

لم يصدق أحدٌ روايته .

وحدها صدقت روايته .. لأنه لم يعد لها كما غادرها .. إنها أمه .. نصحته بأن لا يخبر أحداً بتفاصيل رحلته وإلا أتهم لا بالجنون فقط بل بالكذب أيضا .. لكن القصة تسربت وتسللت من البيت وانتشرت في كل الواحة بطريقة ما .

18

تناقلت المجالس أخبار الرحلة المزعومة .. همس البعض بتكذيب الرواية جملة وتفصيلا .. تغامز البعض استهزاء بصاحب الرحلة .. بحث آخرون عن ثغرة في روايته لإثبات ليس كذبه فحسب بل جنوحه بخياله بعيداً جداً أبعد مما تصوروه .. اعتبر قليلون أن صاحب الرحلة يحاول إيجاد حجة لتركه القافلة فلم يجد حجة ولا سبباً يمكن تصديقه وإقناع الآخرين به إلا تلك الملة التي اعتادوا أن ينسبوا اليها كل غريب وكل إخفاق

.. برر بعضهم أن سبب عودته طرده من القافلة لذنب اقترفه أو لفشله في جني ربح ولو قليل .. لم يخرج من بيته ليوم كامل .. كثرت الأقاويل حوله وشطحت بحثاً عن تبرير مناسبٍ لعودته غير ما لمّح به في جملته اليتيمة التي كانت رداً على سؤاله .

حاول البعض إرسال الخدم إلى بيته علهم يجدون تفسيراً لقدومه أو تعليلاً لجملته الوحيدة التي برر بها عودته مبكراً .. عاد الخدم بنتف من الأحاديث زادت نار فضولهم اشتعالاً وتأججاً .

تقاطرت النساء إلى بيتهم لا ليشاركن أمه فرحة عودته من السفر .. بل لمحاول معرفة السبب الحقيقي لعودته.. باكراً سابقاً قافلته بوقت طويل.. لم تبؤ زيارة النساء بالفشل بل زادت نيران الفضول اشتعالاً.. فما صرحت به الأم على الرغم من قلته يؤكد ما قاله الابن .

في اليوم التالي لوصوله خرج إلى المسجد وقت صلاة العصر .. سلّم لبعضهم رسائل من ذويهم كانوا رفاقاً له في

الرحلة .. خرست كثيرٌ من الألسن بعد انتشار خبر الرسائل الممهورة بتواقيع يعرفونها جيداً ومؤرخة بتاريخ لا يمكن تصديقه .. حملت كلها تاريخ اليوم السابق لوصوله .. لم تحمل الرسائل تاريخ كتابتها وإمضاء أصحابها فحسب بل اسم المكان الذي كُتِبت فيه .. ما أكد صدق روايته .. وقع المشككون في حيرة .

في اليوم الثالث دخل ساحة السوق يعرض بضاعته التي حملها من أسواق تلك المدينة .. تزاحم الناس عليها .. تسابق التجار والأعيان إلى اقتناء ما جلبه .. باع بسعر لم يتوقعه حتى هو .. سعر لا يمكن الحصول عليه في صفقة أخرى مهما كان بارعاً .

بدأت الشكوك تزول حول تصريحه .. حل محلها بعض الظن لا يصل لدرجة اليقين .. أما الدهماء فقد صدقوا الرواية منذ البداية لكنهم كعادة البشر بحاجة لمزيد من الحطب لنيران

الفضول ليّحَلوا به مجالسهم المملة بتكرار قصص قديمة وأحاديث لا إثارة فيها ولا متعة ..

وجدوا في هذا الحدث كل أسباب الإثارة والمتعة فكانت محور أحاديثهم في البيوت والمجالس وحتى وشوشاتهم الكثيرة في المساجد .

في اليوم الرابع جاءه الأعيان في بيته يطلبون سماع روايته كاملة .. اشترط عليهم إجابته عن سؤالين قبل الشروع في سرد قصته .

سألهم عما إذا أقيم حفل في ميدان الحي في الليلة التي سبقت قدومه .. اهتزت الرؤوس موافقة .. أضاف سؤاله الثاني الذي كان عن مؤذن مسجد الحي سألهم أولا عن مؤذن مسجد الحي .. أخبروه أنه سقط صريع مرض مجهول منذ يومين .. يهذي بكلام مبهم .. كان سؤاله الثالث صاعقا :

- هل كان متواجداً في حفلة العرس ؟

هزوا رؤوسهم إيجاباً .. كان ذلك دليلاً كافياً له أيضاً ليتأكد من أنه كان هناك في تلك المدينة بعد أن التبس عليه الأمر من كثرة التشكيك والتكذيب الذي قرأه في الوجوه والعيون .

شرع في سرد روايته الغريبة .

19

في اليوم الخامس زاره شخصان .. كانا على النقيض تماماً في كل شيء .. أولهما جاءه صباحاً .. مشرق الوجه أبيض الثياب .. انحنت ظهره للسنين الطوال والحوادث الجسام .. في عينيه سكينة ووقار .. لحيته البيضاء زادته إشراقاً ووقاراً وهيبة .. جلس إليه في صحن داره .. رفض شرب الشاي متذرعاً بصومه .. تمتم بأورادٍ كثيرة قبل أن يسأله أسئلة كثيرة بخصوص رحلته وعما شاهده فيها .. بدت على ملامحه تصديق روايته منذ الوهلة الأولى .. غادره وقت الضحى بعد أن نصحه بتلاوة أذكارٍ معينة تقيه من شرور تلك الملة وعبثها .

مع غروب الشمس جاءه الزائر الآخر .. أسود الثياب شديد سواد اللحية .. ممتلأ الجسم يتمتم بشيء ما لم يتبينه .. جالسه في صحن البيت كذلك .. رفض دعوته لكوب الشاي دون أن يبدي سبباً .. سأله أسئلة كثيرة عن رحلته ومشاهداته .. كان في عينيه نهم منّفر للمعرفة .. في عينيه قرأ علامات التصديق مشوبة بحسد حاول إخفائه .. قبل مغادرته أبدى رغبة جامحة لزيارة تلك المدينة أو التعاون مع أحد قاطنيها .. طلب مساعدته في تحقيق حلم يداعب خياله منذ سنوات ويأمل أن يساعده على تحقيقه .. قدم له حجاباً يمنحه قوة لمواجهتهم إذا زارهم مرة أخرى .

في اليوم السادس غادر الواحة وحده .. لا يعلم أحدٌ مراده ومنتهى غايته .. لم يخبر أحداً بوجهته .. حتى عندما سأل بعض الفضوليات أمه نفت علمها وأضافت أن ابنها لم يعد من رحلته السابقة كما عهدته .. لم تتوقف عينيها عن ذرف الدموع منذ غادرها .. لم يكن بكاؤها على فراقه فقط بل على عقله الذي لم

يعد كما كان .. شبّه البعض غزارة دموعها بنبع الواحة الخالد غسوف .

سألته متحفزاً :

- أين كانت وجهته ؟

-إلى البئر ....

وصل بعد أسابيع إلى البئر القديمة .. مكث ينتظر ظهور الغريب .. مر يوم ويومان وثلاثة دون أن يظهر للغريب أثر .. نفذ بعد أيام زاده لكن صبره لم ينفذ .. غادر محيط البئر بحثاً عن طعام يقيم أوده.. ويعينه على التصبر والتجلد .. اصطاد كل ما أمكنه وصادفه من كائنات الصحراء .. ضِباب وجرابيع وحَيات أما الأرانب البرية فتمكن مرة واحدة من اصطيادها.. لسرعتها ومناورتها وعدم إجادته الصيد ونصب الفخاخ .

بعد شهرين من الإنتظار الممل مرت به قافلة عابرة نحو الغرب .. زودته بحاجته من الطعام .. أهداه أحد رعاتها اهم

سلاح وأفضل وسيلة لمقارعة الملل وخير رفيق في هذه الصحراء.

توقف عن سرده .. أعاد وضع وعاء الماء فوق الجمر من جديد .. قذف في جوفه حفنة من أوراق الشاي ..حرك الجمر بعود حطب .. نفخ عن كاهله الرماد .. استثاره بمروحته .. بث فيه الحياة من جديد .. توهج وأحمر .. عاد إلى سرده بعد أن كاد يقتلني فضولاً قبل أن يكشف عن كنه ذاك السلاح الغريب :

- هل تستطيع أن تخمن ماذا أهداه ؟

أجبتُ نافياً بهزة من رأسي .. أجاب :

- أهداه ناياً .. نصحه أن يحاول استخراج الألحان من جوفه .. قال له أن الأمر سيكون صعبا بدون معلم ولكنه ليس مستحيلا .. شكره وقبل الهدية ..

في البدء لم يأبه لنصيحة الراعي..

لكنه مع المساء بدء أولى محاولاته .. عند الغروب عرف سر تحمل معشر الرعاة لوحشة الصحراء .

شهران من النفخ في القصبة المفرغة من كل ما في جوفها .. وجد صعوبة في التحكم بحركة أنامله في الفتحات السبعة التي على صدرها .. حاول كثيراً ..

كلما تحصل عليه في البداية كان نشازاً ..

لكن مع الوقت الكثير الذي عليه مصارعته وقتله بهذه الألة بالإضافة إلى إصراره على النجاح وزاد كذلك عدم ظهور أثر للغريب بدأت ملامح تقدمه واضحة ..

خرجت بعض الألحان البسيطة بعد عناء .. في الحقيقة كان عزفه رديئاً لكنه كان معيناً على وحدته .. أو هذا ما أقنع به نفسه .. كان للبعير رأي آخر .. فما أن يبدأ في عزفه وتدريباته حتى يبدأ في الثغاء كأنه يعبر عن استهجانه ورفضه لعزفه فيبتعد بحثاً عن الهدوء في مكان لا تصل إليه فيها تلك الأصوات التي تصدر عن نايه .

ذهب شهران آخران في حال سبيلهما .. كانا الأشد وطأة عليه لشدة حرارتهما .. كما أن القوافل غابت عنه فيهما .. لكن عزفه تحسن خلالهما كثيراً ..

حتى البعير صار أقل حدة وأكثر هدوءً وتقبلاً لعزفه .. لعله استسلم لواقع لا يملك تغييره ههههه ههه .

- انتهت أشهر الخريف دون أن يلوح في الأفق غريبه .. هاجمه الملل والجوع واليأس بشدة لأول مرة .. لكنه أبى أن يستسلم .. كان على ثقة بان الغريب قريب منه لكن شيء ما يمنعه من الظهور .. واصل لعبة الانتظار والصبر ..

مع حلول الشتاء ببرده وقره كان عليه الصمود أكثر فالمواجهة ستكون أشد بينه وبين غرمائه الثلاثة الملل والجوع واليأس .

قبل أن يُلقي الشتاء آخر ما في جعبته من رياح باردة وصقيع قاتل مرت به قافلة الواحة التي تركته قبل قرابة العام في طريقها إلى الواحة .. كانت بعائرها تئن تحت وطأة أحمالها التى حملتها

من أسواق الجنوب .. استغربوا وجوده في نفس المكان وحيداً شريداً دون أنيس .. استغربوا بل استنكروا كذلك هيئته التي أهملها فاستطال شعر راسه ولحيته حتى بالكاد تعرفوا عليه من شدة هزاله .

حكى لهم عن كل ما جرى له قبل أن يغادروه هنا .. عن الرجل الغريب .. عن زيارته لأهل السافلة في مدينتهم الخفية الشبيهة بالواحة في كل شيء حتى في وجوه أهلها .. كان من السهل عليه أن يقرأ التكذيب في وجوههم بل قرأ ما هو أنكى من ذلك .. اعتبروه ضحية من ضحايا تلك الملة أصابته بمس وتركته يهذي بخيالاته ويجوس الصحاري بحثاً عن أوهام وسراب .

حاولوا إقناعه بالعودة معهم .. رفض بشدة على الرغم من إلحاحهم .. أصر على موقفه .. تركوه بعد أن زودوه بما يكفيه لشهرين آخرين من الانتظار .. عاد بعد نفاذ ذلك الزاد من جديد للتربص للحيات والضباب والجرابيع .. أما الأرانب والغزلان

فكانت في مأمن منه فلم يتمكن من اصطيادها رغم محاولاته المتكررة وفخاخه العديدة التي نصبها .

مر عام كامل على انتظاره .. نحل جسمه وتغيرت هيئته .. شحب لونه .. اختفت نظارته .. الشيء الوحيد الذي حافظ عليه وبقي على حاله هو أمله .. أما عزفه فقد تطور كثيراً .. حتى البعير كان يتوقف عن اجترار الأكل كلما نفخ في نايه .. بل كثيراً ما برك عند قدميه بمجرد استغراقه في العزف كأنه حاوي من بلاد الهند يداعب حياته ويراقصها بمزماره .

مع الأيام وتوالي العزف منذ أن يلفظ الأفق الشمس إلى أن يبتلعها من جديد في جوفه ابتكر لحناً جديداً .. لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن يعزف تلك الألحان .. فإذا به يجد نفسه يضيف لتلك التركة الهائلة من ألحان الأولين لحناً لا يجاريها روعة بل يفوقها .. شعر بتفرده وجودته منذ وضع عليه لمساته الأخيرة .. علم بحدسه أن هذا اللحن سيكون له شأن إذا سمعه أهل الواحة .. حاول أن ينسج عليه بعض الأشعار التي قد تزيد من جودة وملاحة سبكه ومتانة بنائه ليكون معيناً له على وحدته .

20

كان متكأ على جدار البئر .. القمر معلق في وسط السماء ينشر ضيائه بسخاء .. ناره الصغيرة كافية لتدفئته .. مرت سحابة حجبت ضوء القمر .. لم يأبه لها .. دندن بلحنه المفضل .. كان لا يمل من تكراره وترديده .. أضاف أبياتاً جديدة له .. كان مقتنعاً أن شعره ليس قوياً لكنه مثري ومثيرة للحن الجديد .. أعاد عزفه بنايه عدة مرات حتى شبع منه طرباً ..

لأول مرة تمنى لو كان تعلم عزف الناي أو الغيطة مبكراً .. ربما تمكن من صياغة لحنه الجديد منذ زمن يضاف لذلك التراث الكبير الذي ورثته الواحة من الألحان .. بل ربما صار لحنه الذي أبدع في صياغته هو المفضل للعرسان للرقص ليلة الحنة في عرسهم .. تساءل كيف تسنى لهم ابتكار كل تلك الألحان .. الأغرب من ذلك كيف استطاعوا صياغة تلك الأشعار البديعة وركبوها على تلك الألحان .. لم يجد جواباً لسؤاله إلا تلك الإجابة المعهودة في مثل هذه الحالات :

- لابد أنهم استعانوا بتلك الملة .

- الشيء الوحيد الذي لم نحسن تقليدكم فيه هو صياغة الألحان.

جفل .. بل فزع لسماعه صوت الغريب لأول مرة منذ أكثر من عام .. استجمع شتات نفسه المروعة .. فرح .. بحث عن مصدر الصوت .. كان الظلام دامساً مخيفاً .. حتى ناره الصغيرة اختفت أو انطفأت .. لم يتبين مكانه .. لكنه موقن يقيناً لا يتزعزع من أنه سمع صوت الغريب :

- لكني شهدت عرساً عندكم .. سمعت أذناي فيه عزفاً متقناً ورأت عيناي رقصاً فريداً .!

من مكان ما جاءه الرد :

- العرس لكم والعزف لكم .. كان حضورنا للاستمتاع بما عجزنا عن مقاومته والإتيان بمثله .

أيقن أن غريبه يمنعه شيء ما من الظهور .. لم يكلف نفسه عناء البحث عن مصدره .. واصل حواره :

- لكن حضوركم كان كثيفاً .. هذا ما لاحظته واستغربته .

- الحضور كان أكثر وأكبر مما رأيت .. ذاك فقط ما أردنا أن تراه .

- كنت أعتقد إلى وقت قريب إنكم تحبون حضور حفلاتنا لكني لم أكن أتصور أن الأمر بهذه الدرجة من العشق .

- هناك شيء ما يشدنا إلى متابعة تلك الألحان لا بأسماعنا فقط بل بكل كياننا .. خصوصاً ذوات الإيقاع السريع فهي الأشد وقعاً علينا .

- أنتم لا تكتفون بالاستماع والاستمتاع باللحن فقط بل بالمشاركة في الرقص والوجد .. تتقمصون أبداننا لتطربوا من خلالها .. بعد أن تشبعوا نهمكم تغادرون لتتركوا ضحيتكم صريع الوجد .. لا يدري ما حل به ولا ما صنعه .

- ربما هذه الطريقة الوحيدة التي وجدها مدمنو حفلاتكم من بني ملتنا للتفاعل مع ما تبثونه من سحر من خلال الحانكم البديعة .

ظهر الغريب بهيئته التي يعرفها من قبل .. لم يتحرك نحوه .. بل تجاهله قائلا :

- في تلك الليلة عرفتُ كل الوجوه الحاضرة .. اشتركوا جميعا في شيء واحد .. حملت عيونهم ما لم أعتده في عيون بني ملتي .. عرفت أنكم تقمصمتم أجسادهم لتستمتعوا في تلك الحفلة .. كل ما جرى تلك الليلة كان طبيعياً ومقبولاً عدا شيء واحد .

- المؤذن ؟

- وحده كان يحتفظ بعينين طبيعيتين .

- في البداية كان محصناً بأذكاره الحصينة فكان من الصعب اختراقه .. لكنه ما أن رآك حتى أصابته دهشة وحيرة .. كانت تلك اللحظة نقطة الضعف الوحيدة .. هي كل ما نحتاجه لاختراقه

.. فكان ما رأيت .. كان بعدها مطية سهلة لأحدنا .. نظراتك المتواصلة نحوه كانت سلاحاً قاطعاً أوقعه فريسة سهلة..

- ألا ترى أن هذا عبث لا يجوز في حق رجل في مثل مكانته .

- هذا طبع الحروب .. لا تستثني أحدٌ من عبثها.

- كنتُ أعتقد أن ما بين ملتينا من عداء قد انتهى أو توقف إلى الأبد ..

- طبيعة الحروب أنها تتوقف لالتقاط الأنفاس ليس إلا.

- كنتُ أعتقد ان سبب نشوبها قد زال وتوصل الطرفان لاتفاق ما بطريقة ما في وقت ما .

- الحروب تتوقف للبحث عن أسباب جديدة لإشعالها .. لولا تلك الألحان.

- الألحان؟

- ألحانكم وأشعاركم وحدها التي تحول بيننا وبين إشعال الحرب من جديد.

- الألحان ؟

- ليس الألحان فحسب بل طريقتكم في عزفها وتجديد أشعارها واستبدالها في كل مرة تعزف فيها .

- الألحان!

- لولا أنك أتقنت عزفها لما التقينا ثانيةً ولو بقيت هنا ألف عام إلى جوار هذه البئر .. لحنك الذي أبدعته هو وحده من منحك هذه الفرصة .. ربما ستكون سبباً آخر إلى جانب صنيعك السابق ما يجعلني هنا الآن .. الألحان كانت شفيعا لك.

-هل تعني إني أحسنتُ استخراجها ؟ ..كنتُ فقط اتسلى .. ها أنت تجعل من انتظاري لك عازفاً هههه ههه .. ها هو الفضل يعود لكم إذا ولن أجحده ههه ههههه .

- في المرة السابقة ارتكبتَ حماقة قبل أن نتمكن من مكافئتك على صنيعك .. فها أنا هنا من أجل ذلك فهل لك أن تطلب شيئا واحداً يكون ثمناً لصنيعك معنا ؟.

- لم أكن أطلب من وراء عملي ذلك جزاءً ولا شكوراً.

- ها نحن نمنحك فرصة أخرى لتطلب طلباً واحداً لا غير ليكون مكافئةً لا ثمناً .

- أطلب أن أمنح فرصة أخرى لزيارة مدينتكم.

- لا تحاول .. هذا لا يتكرر لأحد مرتين.

عمّ الصحراء صمت شديد وعتمة قاتمة .. كان يخشى اختفاء الغريب إن أصر على طلب العودة لزيارة مدينتهم فلن يطيق انتظار عامٍ آخر هنا حتى لو صار أمهر عازفٍ لتلك الألحان وأطولهم نفساً في النفخ على الناي و الغيطة :

- طلبي الوحيد أن أرى تلك الفتاة مرة أخرى .. لن أتنازل عن مطلبي .

21

استوى الدور الثاني من الشاي .. توقف عن سرده .. أفرغ محتويات الوعاء عدة مرات في أحد الكوبين بمهارة ذهاباً وإياباً .. استخلص من تلك الرحلة رغوة بيضاء توج بها الكوبين .. ناولني أحدهما .. نظر ملياً للكوب المترع قبل أن يرتشف منه رشفة :

- استمرت مياه غسوف في التدفق بينما دموع أمه توقفت عن الجريان وجفت بل مآقيها تماماً بعودته الثانية إلى الواحة .

لم يعد وحده .

عاد ومعه دليل على أنه كان هناك أو ربما هنا كما يحلو لأمي أن تقول .. صار الأمر سيان عنده .. لم يعد مهتماً بمعرفة ما إذا كان المكانين واحداً أم هما صرحين مستنسخين من بعضهما .. لم يظفر بلقاء الفتاة فحسب بل نقلت الروايات أنها وقعت في غرامه هي أيضاً .. أكدت جدتي في رواياتها - وهي مصدري

الوحيد المعتمد - أن إتقانه العزف ولحنه الجديد كان سبباً لوقوعها في غرامه .. ربما كان ذلك سبباً في ظهور الغريب .. ومهراً لموافقتها الاقتران به ..

اشترطت أمها عليه شرطاً واحداً لتتخلى له ليس عن ابنتها فحسب بل عن أجمل فتيات مدينتهم .. كان الشرط سهلاً في أول الأمر اتضح له بعد ذلك خطأه .

تزوجها على شرط واحد .. ألا يغضبها وأن يكون طوع أمرها مهما كان طلبها غريباً أو فعلها عجيباً مريباً .. وافق دون تدبر للشرط ودون أن يطلب توضيحاً أو استثناءً ..

- هكذا هو حال العشاق في كل وقت وحين .. من السهل إيقاعهم كما يستحيل بعد ذلك إنقاذهم .

عقب على تعليقي بضحكة .. واصل قوله بعد أن رشف كل محتويات كوبه :

- لا أحد يعلم كيف قطع المسافة إلى الواحة في عودته الثانية .. بل لم يأبه أحدٌ للسؤال عن ذلك في حينه .. لم يكن ذلك الأمر ذا أهمية فقد كان هناك ما شغل الناس عن ذلك..

ذات صباح طلب أحدهم الإذن بالدخول إلى الواحة .. كان شكله غريباً مريباً بشعره الكث ولحيته التي أخفت كل ملامح وجهه وهزاله الشديد وملابسه الرث ..

لولا نبرة صوته التي تعرف عليها الحرس لما سمحوا له بالدخول بل لربما طردوه شر طردة .. لم يحمل على بعيره بضاعة ولا سلعة من تلك المدينة كما توقع الناس .. بل كان على بعيره هودج مهيب .. أجبره انخفاض أسقف الأزقة على أن ينيخ بعيره ..

عندها فقط بدأت الواحة تلوك سيرته وتبحث عن خفاياها.

22

ترجلت من الهودج امرأة ..

ليس هذا ما أثار استغرابهم .. صحيح أن أهل الواحة لم يتعودوا الزواج من غير بنات الواحة .. حتى إذا ما اضطر أحدهم لفعل ذلك كان من النادر أن يصحبها إلى الواحة إلا إذا منحته أغلى ما يطلبه الرجل من الزواج :" الذرية " .. حينها تخرس الألسن عن انتقاده ولو إلى حين أو على استحياء وفي حالات قليلة يكون الصمت على خوف .. لكن لا يمنع هذا من التهامس .

- فماذا أثار استغرابهم إذاً ؟

- ما أثار استغرابهم هو أنه عبر بها أزقة الواحة في وقت يحضر فيها مرور الرجال في الأزقة لأنه الوقت المخصص للنساء فقط للذهاب إلى المساجد .. لم يكتف بذلك .. بل أنه دخل برفقتها للمسجد ليزيل عن بدنه اثار السفر من الماء الجاري في الساقية التي تخترقه ما أثار فزع النسوة ومغادرتهن للمسجد هاربات مولولات .

من هنا بدأت الألسن تلوك سيرته من جديد فكان حديث الجميع .. كان كلما عاتبه أحدهم على فعلته النكراء يكتفي بالابتسام فقط .. كانت الابتسامة جواباً لكل ما يطرح عليه من أسئلة ورداً على كل ما ينتقد فيه من أفعال .

كانت نسوة الواحة يبحثن في أمر آخر حظي باهتمامهن في نواديهن في أسطح البيوت .. لم يكن أمر اقتحامه عليهن المسجد بأهم منه .. أنه تلك المرأة التي أصطحبها معه .

23

اختفى أياماً عن الأنظار لم يغادر بيته .. غابت أخباره عن الأسماع .. امتلأت الواحة فضولاً وشغفاً بمعرفة ما يجري خلف الأبواب الموصدة .. خرج بعد أيام في أحسن صورة وأجمل ثياب .. حليق الرأس مهذب اللحية موفور الصحة .. لم تكن خرجته بتلك الهيئة وحدها التي فاجئت الناس بل إعلانه عن عزمه إقامة حفلة عرسه .. دعا جميع أهل الواحة لحضور ليس وليمته فحسب بل حفلة العرس كذلك .

أكلوا في ذلك اليوم ألذ وليمة وأطيب طعام .. تحدثوا بعدها طويلاً ليس عن لذتها ولا طيبها بل عن من جهزها وأعدها .

لابد أنك تتساءل عن سبب استغرابهم واستفهاماتهم التي تكاثرت حول الوليمة .. لابد ايضاً أنك ستطرح نفس التساؤلات إذا علمت أن طعام الوليمة كان تلك الوجبة التي اشتهرت بها الواحة دون سائر الواحات والمدن في تفضيلها على باقي أصناف الطعام .. ليس لطعمها الفريد فقط بل لرائحتها المميزة النفاذة التي يسيل لها لعاب أكثر الناس رزانة .

- الملوخية ؟

- نعم الملوخية .. يحلو للبعض وصفها بأنها طعام الملوك .. آخرون يتعمدون دائماً أن يخلطوا بين الاسمين الملوكية والملوخية بل يجعلهما بعض المتعصبين لهذه الأكلة كلمة واحدة هذه من تلك وتلك من هذه .

وجه الغرابة هو في أن تلك الوجبة بحاجة لفترات طويلة تمضيها فوق النيران المتأججة لتستوي وتصبح جاهزة للأكل قد

يصل الأمر إلى يوم كامل .. ما يعني كميات كبيرة من الحطب خصوصاً أنه استضاف كل الواحة دون استثناء وليس كما جرت العادة باستضافة الأعيان والتجار من باقي العشائر بالإضافة لأهل عشيرته .

نفت نسوة الحي مشاركتهن كما تقتضي العادات في إعدادها منذ الليلة التي تسبق أكلها وما يصاحب ذلك من غناء ومرح ورقص .. كما أكدن أن أعينهن لم تر ناراً توقد ولم تشم انوفهن رائحة طهيها .. بل فوجئن كما فوجئ الجميع بالوليمة جاهزة .. فرائحتها المميزة التي لا يمكن إخفائها ليس على جيرانك فقط بل على كل الحي وربما الواحة كلها .. ربما هذا أحد أسباب عشقهم لها .. فهي لا يمكن أن تطهى سراً ولا يمكنك إلا أن تشارك فيها جيرانك كلهم أكلها معك .. يقال أنه يلزمك إطعام كل من تصله رائحة طهيها ..

أما الرجال فقد أكدوا أنهم أكلوا حتى الشبع لحماً لم يذوقوا له طعما من قبل .. أما الملوخية فقد أقسموا أنه لا يمكن أن تكون من طهي نساء الواحة .. طبعا هذا ليس طعنا في مهارتهن في

إعداد هذه الوجبة التي تحظى بشعبية تحسد عليها بل إمعانا في وصف لذتها وحلاوتها .

في تلك الليلة دعا أشهر عازف غيطة في الواحة .. ربما يكون أشهر عازف غيطة في تاريخ الواحة كلها منذ أدخل أحدهم تلك الآلة للواحة .. على الرغم من اعتزاله العزف من سنوات بعد عودته من الحج وليس كما يزعم البعض لسوء صحته .. لا يعلم أحد كيف استطاع إقناعه بالعزف من جديد .. لم يكن المال سبب عودته بكل تأكيد .. فقد عرض عليه الكثير منه قبل ذلك لكنه كان يصر على الرفض .. توقف الآخرون عن محاولة إقناعه إحتراماً لقراره الاعتزال بحثوا عن ضالتهم في الاستماع لعزف غيره .. صحيح لم يكن غيره بمهارته وحرفيته لكنهم ليسوا سيئين أيضاً بل كانوا ماهرين بدورهم .. استدعى أيضاً تلك الليلة أفضل عازفي الإيقاع .. لم يكتف بعازفي الدفوف فقط بل استدعى عازفات اندا كلال[1] ايضا.

[1] ـ آلة إيقاع غدامسية صغيرة الحجم تصنع باحجام مختلفة للحصول على ايقاعات مختلفة.

في تلك الليلة لأول مرة في تاريخ الواحة تعزف فيها الغيطة مصاحبة لنوعين مختلفين من آلات الإيقاع في تمازج بديع ما زاد من حلاوة العزف والرقص .

اكتظت أكبر ميادين الواحة بالجموع ... حتى النساء جرصن على الحضور والاستماع من أسطح البيوت القريبة من الساحة المجاورة لعين غسوف التي اختارها لحفل عرسه .. لأنها وحدها القادرة على استيعاب كل أهل الواحة .

عزف العازف الكهل بطريقة ساحرة اشتاق الجميع لسماع طريقته المميزة في عزف الألحان .. فمنذ قراره اعتزال العزف لم يتمكن أحد من العازفين على كثرتهم من الوصول لمكانته ... إن أردت الحقيقة لم يقتربوا منها مجرد إقتراب .. لم يفلح أحد في الوصول لمهارته .. يقال إنه يستطيع أن يعزف من مطلع الشمس إلى مغربها دون ان يعيد لحناً واحداً .. يقول العارفون بهذا الفن إنه في كل مرة يعزف فيها في حفلات العرس يستفتح بلحن جديد لم يسمعه أحد من قبل .. يضاف إلى الكم الهائل من الألحان

البديعة الموروثة عن الأوائل .. يسارع بل يتسابق الأزواج في حفظه ونقله لزوجاتهم لينسجن بدورهن شعراً بديعاً في وصف بناتهن او مدح أبنائهن وإخوانهن أو أزواجهن .. ربما الأكثر جرأة تصنف جمال بناتها ..

قيل أن العازف العجوز أبدع تلك الليلة لدرجة أنه أبكى كثيرين من شدة الوجد والطرب لحد الانتشاء .. أما عاشقو الرقص ومدمنوه فقد انتهزوها فرصة لا تعوض فجاءوا من كل أرجاء الواحة ليستعرضوا بدورهم رقصاً بديعاً يليق بتلك الألحان المنسابة بواسطة أنامل الكهل التي لم تفقد مرونتها ولا مهارتهاعلى الرغم من مرور سنوات على قرار اعتزاله .. يقول البعض أن الجنادب و الضفادع خرست وتوقفت عن النقيق تلك الليلة فكانت العين هادئة لأول مرة منذ قرون .

في تلك الليلة رقص بدوره .. لبس ثياب العريس كاملة .. أخفى ملامح وجهه بثوبٍ نُسجت عليه رسومٌ مجهولة .. استجلبته قوافل الواحة من أسواق بعيدة .. بأنامل لنساء قبائل

السود .. أكد كثيرون أنهم لم يروه يرقص من قبل .. أضاف آخرون أنهم لم يروى أبدع من رقصه .. أقسم أحد أمهر الراقصين في الواحة بأغلظ الأيمان أن هذا الرقص لا يمكن أن يرقصه أحد دون أن يتلبسه أحد أبناء تلك الملة العاشقة لهذا الفن ..ما لم يختلف عليه اثنان أن اللحن الذي رقص عليه كان جديداً ولم يسمعه أحدٌ من قبل .

تقول جدتي أن اللحن لم يكن من إبداعات العازف الكهل بل من إبداعاته هو .. ففي رحلة انتظاره الطويلة جوار البئر لم يتعلم العزف بإتقان ومهارة فحسب بل صاغ ذلك اللحن العجيب أيضاً ليرقص عليه ليس في تلك الليلة فحسب بل في كل مرة يعزف فيها في الحفلات التالية .. بل ليصبح اللحن المفضل لرقص العرسان في ليلة عرسهم ..

تناقلت الأسماع اللحن .. حفظته القلوب .. دندنت به الألسن .. في اليوم التالي بدأت النساء ينسجن على وقعه أشعاراً جديدة .. استعرّت المنافسة بينهن ..

أضافت أشعار النساء للحن الجديد جمال المعنى بعد أن كان جميل الروح .. صار اللحن افضل وسيلة لإبداعات الشاعرات خصوصا اللاتي ينسجن قصائدهن لأول مرة ..

لو لم يعد من رحلة انتظاره بغير ذلك اللحن لكفاه .

24

كان عليّ أن انتهز فرصة صمته لأسأله سؤالا طالما أرقني .. فلربما وجدت عنده اجابة شافية .. ما أن أترع كوبي شاياً من جديد حتى سارعت لسؤاله قبل أن يستأنف سرد روايته المشوقة والغريبة :

- كيف صار لمثل هذا الفن كل هذا التأثير وكل هذا العشق وكل هؤلاء المريدين والمهوسين ؟

وضع الإناء جانبا .. ارتشف من كوبه .. تلذذ كعادته .. لم أكن أن للشاي كل هذه المتعة قبل هذا اللقاء .. وضع الكوب الفارغ أمامه قال :

- لم يكن الأمر وليد يوم وليلة .. بل لابد أنه مر بمراحل طويلة حتى صار لما وصل إليه الآن .. فهذه سنن الكون في التطور والتغير والتبدل كما اعتاد الناس في كل شؤونهم .

منذ القدم كان الغناء متنفسا ليس لتسلية النفس فحسب بل لتسرية الهموم عنها أيضاً ..

لا أحد يستطيع الجزم ببداية شيء في هذه الواحة .. كل شيء فيها بدء في زمن لا يمكن تحديده .. ما أستطيع أن أجزم به أن النساء هن من إبتدعن تلك البدعة .. فهن وحدهن القادرات على الإتيان بفعل عجيب كهذا ..

هل تنكر أن تلك الفئة هي سبب لكل شيء جميل في واحتنا ؟

- ههه هههه نحن الرجال نحاول أن نهضمهن حقهن بعدم الاعتراف بفضلهن كاملا .. لكن هيهات هههه

- ربما كانت البداية دندنة لحن ما على وقع نظم عدة كلمات .. كان التصفيق هو الضابط الوحيد المتاح في أول الأمر .. استمرأن الأمر وأعجبهن .. كان لابد لضبط تدفق اللحن من ضابط أفضل من ضرب الكفين بعضهما ببعض أو ضرب احدهما على الفخذ .. استعن بالطبل الضخم المدسوس والمصنوع لشيء ما غير الطرب .. كان يرقد في سبات ينتظر من يوقظه منه .. تحلقن حوله .. رغم ضخامته وعظم حجمه كان وقع الضربات على سطحه مؤثراً ..

منذ ذلك اليوم الذي أجبرته النسوة على أن يضبط لهن إيقاع نظمهن لم تعد وظيفته الوحيدة إعلان بدء الحروب والانغماس في الدماء والقتال .. بل لبدء الغناء والطرب والغوص في الرقص والجذب والوجد ..

كان إيقاع الطبل وغناؤها بطيئاً .. صحيح أنه كان يحرك الأرواح والنفوس لكنهن كن بحاجة لتحريك الأجساد أيضاً .. فاخترعن نوعاً آخر من الشعر واللحن يمكنه أن يجمع الوظيفتين في آن واحد ..

انسحب الطبل راضياً بما قدمه من إطراب للأرواح مبدياً عجزه عن باقي المهمة .. مفسحاً المجال والمكان لما سمته النسوة فيما بعد اندا كلال لمشاركته باقي المهمة المتمثلة في إطراب السامعين والعازفين في نفس الوقت جسداً وروحاً ..

صغر حجمه وخفة وزنه حسنت كثيراً من إيقاعه هذا عدا حسن السبك والصنعة في اللحن والنظم ..

لصدى ضرباته وقع على النفس والبدن .. تسارعت الألحان المصاحب له .. حتى الأشعار تبدلت إيقاعاتها وألحانها بما يتوافق مع القادم الجديد لحلقة النساء .. كان علامة فارقة في حلقة النسوة ..

يبدو أن الدفوف والبنادير وصلت أخيراً لتلتحق لا بحلقة النساء .. فحجمها ووزنها لم يكن يؤهلها للدخول ذاك المعترك النسوي فلم تحظى بقبول هناك .. فكان نصيبها حفلات الرجال .. فكان المفضل عندهم .. جمع البندير بين وظيفة الطبل في

تحريك الأرواح ومهمة اندا كلال في تحفيز الأجساد للاستمتاع باللحن .. فتتمايل في تناسق بين اللحن والنظم .

أحدهم حاك اللحن بنفخ الهواء في قصبة مفرغة مما في جوفها .. مثقوبة الظهر بسبع فتحات متباعدة عن بعضها يتحكم بتسرب الهواء من ثقوبها بأنامله .. استطاع بعد محاولات مضنية أن ينجح في عزف اللحن ليس كما يجب بل أكثر مما توقع .. كان لذلك وقع كبير في أرجاء الواحة .. عزف مع أقرانه بعض الألحان ..صاحبوه بالإيقاعات .. كان الأثر مفزعاً .. إنه الطرب الذي ينشدونه في أحلى صوره .

لكن إحدى القوافل التجارية حملت ذات رحلة معها عازفاً من أمم الأدغال .. كان يتقن إلى جانب كل الأعمال التي تحتاج لقوة البدن العزف على آلة لم يروها من قبل .. مزجت بين الناي في الشكل والوظيفة وبين البوق في قوة الصوت وضخامته .. حملت من الأسماء الغيطة قال أنه تعلم العزف عليه عندما كان يعمل في بلاد تقع قرب البحر ويرطن أهلها بلغة مجهولة ربما

يكونون تركاً أو فرساً لم يعر ذلك إهتماماً كما أعاره لتلك الآلة التي سحرته فتعلم العزف عليها .

جرب أحد عازفي الناي تلك الآلة ذات تحدي .. عزف عليها لحناً من ألحان الواحة فكانت الصدمة كبيرة هذه المرة .. إنه السحر الذي يسعون إليه في أبهى صوره .. إنه لا ينفخ هواءً في قصبتها بل روحاً .. فأنت لا تسمع ألحاناً بل أشجاناً .

منذ ذلك اليوم لم تغب عن الساحة .. انسحب الناي في ركن قصي .. فقد قدرته على الإطراب أمام الوافد الجديد .. مع الوقت صار العازف أهم أركان الطرب .. فكان ملكاً صولجانه غيطته يأمر فيطاع .. يعزف فتخر له الجبابرة صاغرين مستمعين بل راقصين منتشين .

أما ترتيب عزف الألحان لا أعلم كيف ابتدع أحدهم أو إحداهن وسيلة لينظمها في عقد متسلسل .. معروف البداية ومعلوم النهاية .. موزون بنظام لا يختل .. لا أخفيك سراً إذا

قلت لك إني على يقين أن هناك الكثير من بدائع الألحان قد ضاعت واندثرت ليس لسوئها بل لركاكة نظم أشعارها المصاحبة .

اللحن والنظم توأمان يعيشان معاً ويندثران معاً .. أحدهما يرفع الآخر أو يخفضه .. يحيه أو يميته .. لهذا حرصت النسوة على تجديد النظم بين الفينة والفينة ليمنحن لحنهن المفضل عمراً جديداً .

كان لـ اندا كلال مكانة خاصة عند النسوة دون سائر آلات الإيقاع الأخرى على الرغم من كثرتها وتنوعها واختلافها .. فهو قادر وحده على الإطراب حتى في حال غياب عزف الغيطة ..

همس قائلاً :

- تلك النسوة يستطعن ترويض أي شيء .. لا يعجزن عن شيءٍ أبداً .. من الصعب معرفة حدود قدراتهن أو السيطرة عليها .

25

لم تكن تلك الليلة وحدها حديث الألسن .. ربما رقصه الفريد وحده الذي استأثر بالإعجاب لدى الرجال .. أما النساء فكن إلى جانب اهتمامهن باللحن الجديد يتهامسن عن أمر آخر .. لم يكن زواجه من غريبة عن الواحة ما أزعجهن فقط بل أن تكون تلك الزوجة تنتمي لملة بيننا وبينها ما صنع الحداد فذلك أمر يستحق بل يوجب الاهتمام أيضا .

لم يصدق أحد هذا القول .. لكنه انتشر في كل أحياء الواحة السبعة يقال أنه تجاوز الأسوار أيضاً ليصل إلى الواحات القريبة .. تسلل بعدها لأبعد مكان تصل إليه الأخبار .. في البداية تناقلت الألسن الخبر همساً كما تنقل أخبار الفضائح .. ثم صارت علنا كعادة الأشياء الغريبة .. كان لابد من البحث عن دليل لا ليدحض الزعم بل ليؤكده .

بدأت رحلة البحث .

في البداية جاءتها نسوة الواحة بعد تلك الليلة العظيمة مهنئات ... كانت نسوة الحي السباقات كما جرت العادات وسارت عليه التقاليد .. لم يكن هدفهن التهنئة بل المعرفة .. في أول الأمر زرن أمه العجوز كما تقتضي العادة .. لكنهن لم يجدن العروس في بيتها ما عزز الشكوك أن في الأمر شيئا ما .. لم تفصح العجوز عن شيء سوى فرحتها بعودة ابنها وزواجه بعد طول دعاء وانتظار .. غادرنها لينتقلن إلى بيت الابن.. بحثاً عن الحقيقة لا التهنئة .

عدن من الزيارة أكثر تأكيدًا من أن تلك المرأة ليست من بنات ملتهن ليس لجمالها المفرط الذي اعترفن صاغرات بأنهن لم يسمعن ولم يرين أحد حاز جمالاً مثل ما حازت تلك الغريبة .. بل للسانها .

- لسانها ؟

- نعم كانت تتحدث بلسان أهل الواحة ما زاد من يقينهن فيما رمينها به من أنها من ملة أخرى.. فلغتنا لا يعرفها ولا يتقن

الحديث بها إلا من عاش بيننا حينا من الدهر بل لابد أن تكون أمه من يلقنه أسرار تلك اللغة ويجريها على لسانه .. فمن أين اتقنت تلك الغريبة استعمال لساننا ومتى وكيف.. ؟

هذا عدا ابتسامة لا تفارق محياها .. أما لباسها لم يحظ باهتمام الزائرات لأنه نفس ما يرتدينه في الأفراح وأن بدت أكثر جمالاً وفتنةً فيه منهن .

تقاطرت نسوة باقي الأحياء لزيارتها بعدما وصل لأسماعهن ما نقلته نساء الحي الذي تقطنه .. عدن لأحيائهن أكثر حيرة من ذي قبل .. لم يختلف ما شاهدنه عندها عما وصفنه بها نساء حيها .. بل ما حيرهن إنها لم تحدثهن بلسان الواحة فحسب بل كل فوج حدثته بلكنة ونبرة الحي الذي جئن منه .. لاحظن أنها تتعمد استخدام الكلمات التي تميز كل حي عن الآخر هذا عدا الإيقاع المختلف في نطق الكلام من حي لآخر.

تناقلت الأفواه الخبر .. فمثل هذا الأمر يستحيل أن يتقنه حتى أشد أهل الواحة موهبة في تعلم السن الأمم المجاورة والبعيدة ..

امرأة واحدة رأت في زيارتها ما لم تره الأخريات أو تجهلنه وربما أهملنه .. إنها العيون .

- العيون!

- نعم .. ليس لونهما فقط ما استغربته .. بل أكدت أن فيهما شيء لم تستطع التعبير عنه .. ربما لم تجد الكلمة المناسبة لوصف ما أرادت قوله .. لكنها أقسمت أغلظ الأيمان أن لعيونها ألقّ ربما يكون هو ما سحرت به عقل زوجها .

26

بعدها تجنبتها نسوة الواحة ..

لم تسع بدورها للتواصل مع جاراتها .. حتى نوادي النسوة على كثرتها وتنوعها فوق الأسطح لم تشهد حضورها ولو لمرة واحدة .. بل تمادت في ذلك لم تكلف نفسها عناء ربط أواصر القربى مع أهل زوجها .. تتهامس النسوة ايضا أنها لم تزر بيت أم زوجها قط على الرغم من أن جداراً واحداً يفصل بينهما ..

في الحقيقة لم تذكر إحداهن قط إنها رأتها خارج بيتها .. حتى المسجد لم تكن ترتاده كسائر النساء للتطهر والتنظف والوضوء والصلاة .. هذا الانقطاع عن العالم المحيط بها زاد من سعير الفضول تأججاً .

حاولن بشتى السبل اقتحام حياتها وسبر غورها والبحث عن دليل واحد يربطها بملتهن .. فشلن في كل محاولاتهن .. كان أسهل وسيلة لهن للوصل لماربهن هي الخدم .. حاولن عن طريق استجواب خادمات العجوز أم زوجها .. لكنهن لم يشفين غليلهن .. بل زاد ذلك من تأجج نيران رغبتهن في الوصول إلى هدفهن .

لم يكن حال الرجال بأحسن من حال النسوة .. في البداية لم يكن أمر زوجته ليعنيهم بمثل ما أهتمت به النسوة .. لكن مع الوقت بدأ الأمر يستفحل .. بدأوا يستغربون من الرجل سلوكه .. قلة صبره على فراق بيته ومكوثه لساعات طويلة فيه عكس ما اعتاده رجال الواحة بل عكس ما اعتادوه منه شخصياً .. كان

يتجنب أيضاً مجالس أقرانه .. كان يكتفي بأقل القليل الممكن .. لم تكن الابتسامة تفارق محياه .. الغريب أنه لم يتحدث عن رحلته ولم يشر إليها لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ .. حتى عندما سأله بعض من التقاهم على البئر اكتفى برد واحدة لكل من سأله .. ابتساماته كانت جواباً جامعاً لكل أسئلتهم .

ربما ما كان سبباً لغيضهم ونفورهم منه أكثر هو تأنقه الدائم وعطره المميز الذي ينبعث منه .. خصوصاً بعد أن أعلن أمهر المتاجرين في العطور عن عجزهم في تحديد ماهيتها ما زاد من شكوكهم وتأكيد بعض ما يروجه العامة من أن زوجته هي من يصنعها ويحضرها له .. وأن تلك الملة وحدها القادرة على استخلاص مثل هذه الرائحة من زهور وأعشاب ربما لم يعرفوها من قبل ولم يسمعوا بها .

بعث له الأعيان يستأذنون في زيارته للتهنئة بسلامة العودة وبمناسبة زواجه ايضا .. جاءوه بعد أن طال انتظارهم لتحديد موعد الزيارة .. استقبلهم في تمانحت داره .. بل أحسن وفادتهم وضيافتهم .

انتظر الجميع ما تسفر عنه زيارة الأعيان لداره.. على الرغم من أنهم لم يعتادوا أن يبوحوا بما يجري في لقاءاتهم الخاصة للعامة.. لكن هذه المرة كانت الاستثناء الوحيد ربما منذ قرون طويلة.. في الحقيقة أنهم لم يجهروا بما رأوا بل أسروه لخاصتهم .. وكما هو معروف فإن لكل أحد خاصته .. فإذا بالواحة تعلم بخبر الزيارة ونتائجها في عشية واحدة .

أشادوا بشكل البيت ونظافته وجمال نظامه وحسن ترتيب أثاثه بأفخر ما اعتادت عليه بيوت الواحة أن تزين به بيوتها .. بل أشار بعضهم من طرف خفي أن نقوش الجبس على صدر البيت كانت أكثر براعة .. أضاف آخر – سراً - أن رسوم الزنجفور الحمراء كانت رائعة بشكل لا يمكن وصفه ذكرته برسومات أقدم عجوز احترفت هذا الفن في الواحة .. أما عن الطعام الذي أكلوه فقد أكدوا أنهم لم يأكلوا أطيب من ذلك ولا الذ .. كانت أخبار زيارتهم على كل لسان .

ذكروا أنهم عندما سألوه عن زواجه كيف تم ومتى تم وأين تم .

توقعوا أنهم قد احرجوه بهذه الأسئلة التي خاضروه بها .. لكنه أخجلهم بصمته وعدم إجابته .. بل لم يختلف جوابه في كل مرة ولم يزد عن الابتسام .

في اليوم التالي لزيارة الأعيان زاره الشيخ بثياب البيضاء متلفعٍ بجرد حريريٍ أبيض ناصع ووجه الوضاء .. رفض تناول أي شيء من أسباب الضيافة التي وضعها بين يديه متعللا بصومه .. تحدثت الواحة كثيراً عن قوة الشيخ بعد تسرب خبر زيارته .. اعتبرت أن له قدرة خارقة لمقاومة ما قدمه له من طعام وشراب .. خصوصاً بعد ما شاع عن حلاوة طعمه ولذته وفرادته .. اعتبر البعض ذلك دليلاً كافياً لاعتبار الشيخ ولياً صالحاً .

هنئه بزفافه أضاف بعدها :

- لا يلجأ أحد للاقتران بخليلة من خارج الواحة إلا إذا وجد فيها ما لا يمكن أن يجده في بنات الواحة .

- صدق سيدي الشيخ .

- لن أسألك عن ذلك الشيء الفريد الذي حرم مجالس الواحة من حضورك ووجودك .

- غيابي كان غياب الجسد عنها فقط .. فسيرتي حاضرة في كل مجلس .. ليس مجالس النسوة فوق الأسطح فقط بل حتى الأعيان في الساباط[1] .. لن استغرب أن تعقد توفرضا[2] اجتماع بهذا الشأن أيضاً .

- هذا شأن كل أمرٍ فريدٍ يحل بالواحة .. عليك أن تلتمس لهم العذر فقد أتيتهم بما لم تأتِ به الأوائل .. بل لم تسمع به ايضاً إذا صح ما تتناقله ألسن العامة والدهماء ... فالناس تعشق الخوض في كل أمر يجد عليها وتجد متعة في تناقله بل والزيادة عليه بما يتلاءم مع غرابته .

- صدق سيدي الشيخ .

- لا تنس تلك الأذكار التي زودتك بها في زيارتي السابقة .. استعن بها ولا تستهن بها .. قد يطلبك القاضي قريبا للتأكد من عقد الزواج فتهيأ للأمر وأعد له عدته .

[1] - بلغة غدامس القديمة اسم لمكان أو مجلس يشترط ان يكون مسقوفا .

[2] - اسم بلغة غدامس القديمة لمجلس اعيان الواحة المناط به حل اي مشكلة تحل بالواحة .

في مساء نفس اليوم مع حلول العتمة طرق بابه .. بالكاد ميزه في عتمة الزقاق بثيابه السوداء كأنها حيكت من الكآبة .. ولحيته الكثة التي تغطي سائر وجهه .. عيناه تبثان جشعاً .. ويتطاير منهما الشر والشرر .. دخل لسقيفة البيت قبل حتى أن يأذن له بذلك .

التهم كل ما وضعه أمامه من طعام هذه المرة .. بل تلذذ به .. لم يكن يعنيه أمر زواجه بقدر ما كان يعنيه أمر آخر :

- هل أخبرت أصهارك عن رغبتي الملحة في زيارة مدينتهم والتعاون معهم بل والنزول على شروطهم مهما كانت مجحفة ؟

أجابه بالنفي .. تأسف كثيراً لذلك .. غادره منبها إياه أن لا ينسى ذلك في المرة القادمة .. ابتلعته عتمة الزقاق .

27

مرت الأيام تباعاً .. تغيرت حاله وتبدلت أحواله .. صار أكثر أناقة ووسامة وصحة .. لكنه احتفظ بشيء واحد لم يتغير بعد زواجه .. عزوفه على حضور مجالس القوم مفضلاً قضاء

جل وقته في بيته رفقة زوجته .. لكنه حرص على إقامة حفلة بين الفينة والأخرى .. ليمتع نفسه بالرقص على أنغام لحنه الذي سحر به الأسماع والألباب وألهم خيال الشاعرات فنسجن على وقعه أبياتاً عظيمة لا تزال تغنى حتى اليوم بنفس الحماسة ولا يزال له نفس التأثير والوقع على النفس .

يقال أن سبب إقامته لتلك الحفلات تنفيذ لشرطٍ اشترطته عليه تلك الملة كمهرٍ للتنازل لهم عن حسنائهم .. تقول جدتي أنه كان في كل حفلة يقيمها يلحظ بين الحضور الغريب .. لم يلحظ وجوده سواه .. كان مداوماً ومدمناً على حضور الحفلات من بدايتها بعد الفراغ من صلاة العشاء حتى الانتهاء منها بأذان المؤذنين لصلاة الفجر .. ربما كانت تقام من أجله أولاً ثم لبني ملته ثانياً .. لكن ما تناقلته الأنباء أنه داوم على الرقص في كل حفلة ببراعة على أنغام لحنه البديع .

لكن ...

28

السعادة مطلب يسعى الجميع للحصول عليه والاحتفاظ به .. قد يجد البعض الطريق معبداً للوصول .. ربما البعض لا يشعر بأنه قد وصل للغاية .. معظم الناس تتوه وتتعثر في الوصول .

المشكلة ليس في الوصول إليها والاستمتاع بنعيمها .. لكن المشكلة تكمن في إمكانية المحافظة عليها .. هذا ما اختلف فيه البشر .. تقول جدتي - في روايتها - أنها اقام وليمة أخرى كبيرة .. دعا لها سائر الواحة أيضاً .. حرص من فاتته وليمته الأولى أن يكون في مقدمة الحاضرين .. أكلوا نفس الطعام اللذيذ وطرحوا على أنفسهم نفس الأسئلة التي عجزوا في كل مرة على إيجاد أجوبة مقنعةً لها ..

من طهى له كل هذا الطعام اللذيذ ؟ ..

كانت مناسبة الوليمة هذه المرة – كما قال لهم – أنه رزق بتوأم جميل .. ولد وبنت .. سُمعت الزغاريد تتصاعد من بيته فجراً .. كما أن النسوة أقسمن أنهن سمعن منادية تنادي فوق

السطوح بقدوم مولود كما جرت عليه العادة في الواحة .. تتبعن مصدر الصوت فعرفن أنه في الحي الفلاني بل في البيت الفلاني الذي هو بيته .

رائحة البخور ملأت زقاق بيته وانتشرت على طول الحي .. أنكرت قابلة الحي أنها قامت بتوليد زوجته بل أضافت أنها لم تدخل البيت منذ حلت به .. تحدث البعض عن إمكانية أن تكون قابلة من حي آخر هي من ولدت زوجته .. وصل إلى الأسماع نفي ذلك في سرعة استغرب لها الجميع .. ما أن عجزوا عن الوصول إلى جوابٍ مقنعٍ أضافوا ذلك إلى سلسلة طويلة من الغرائب والعجائب والأسرار التي تغلف حياته منذ غادر في رحلته الأولى .

جاءت نسوة الواحة للتهنئة من جديد .. لم يرين التوأم بل لم يسمعن بكاءً على الرغم من مكوثهن الطويل في بيته .. كانت فرحة أمه العارمة الدليل الوحيد على صدق إدعائه ..

29

حدث ما عكر الأجواء ..

لا أحد يملك التفاصيل الحقيقية لما حدث .. كل ما قيل حول سبب تعكر الأجواء لا يخرج من أمرين اثنين إما الخيال أو الظن .. وكلاهما لا يغنون من الحق شيئاً .. المهم في الأمر أنه أدى إلى الانفصال بين الزوجين .

قيل أن السبب كان خلافاً بين أمه وزوجته عكر صفو حياته ما جعله يغضب دون قصد وإرادة منه من زوجته .. لم يتفق أصحاب هذا الرأي على سبب واحد للخلاف .. فبعضهم يرى أن السبب هو في تسمية الوليدين .. السبب الثاني كان في منع الأم الوالدة أم زوجها من الاقتراب من الوليدين الحفيدين .. ما كان سبباً لغضب الأم العجوز من الأم الحسناء .. فحدث شجار أمام أسماع وأنظار الزوج الذي نسي الشرط المشترط عليه من قبل تلك الملة .. فكان الفراق .. مهما كان السبب فالنتيجة النهائية واحدة وهو الانفصال .

اختفت الزوجة ليس من بيته فحسب بل من حياته .. عاد بعد غياب قصير عن البيت فلم يجدها .. استغرب ذلك .. فمنذ حلولها بالواحة لم تغب عن بيتها .

ناداها .. لا مجيب .. بحث في **كوبت**[1] البيت عن الوليدين .. لا أثر لهما ولا لأغراضهما .

بحث في أرجاء البيت وغرفه حتي خزائن البيت فتحها .. لا أثر لها ولا لهما .

كان لذلك وقعٌ عظيمٌ عليه .. لم يكن فقدان القرينة سهلاً عليه فما بالك إذا اصطحبت في غيبتها ابنيه .

في بادئ الأمر اعتقد إنها غمامة صيف عابرة .. تزول مع الوقت .. حاولت أمه التسرية عنه بشتى الطرق والوسائل .. فشلت في ذلك .. اعتذرت له كثيراً لامت نفسها أمامه وطلبت

1 ـ الكوبت : غرفة صغيرة في باحة البيت الغدامسي صممت لتكون كخدر للعروس ليلة زفافها ومكان لتستقبل فيه ضيوفها بعد ولادتها او وفاة زوجها .

الصفح مراراً .. وعدته أن تعتذر لقرينته ما أن تظهر وتعود من غيبتها بالولدين .

طالت أيام انتظاره لكن الغمامة على حالها لا تزول .. فكر في وسيلة لرأب الصدع قبل أن يستفحل .. تذكر نايه القديم هدية الراعي الذي كان سبباً للوصال .. غله يكون سبباً في الصلح والإصلاح والتسامح وعودة المياه لما كانت عليه من الجريان وجمعه بقرينته وابنيه .. سيعزف عليه علها تطرب فتحن وتستجيب له وتعود إليه .

بحث عنه في حاجياته .. فتح كل خزائن البيت ولم يجده .. قلب البيت رأساً على عقب لا أثر للناي .. كاد يفقد الأمل في إيجاده عندما فاجأته أمه به .. وقفت أمامه تحمله .. خطفه من يديها .. كانت تشعر بالحسرة ليس على ولدها فقط بل على وليديه أيضاً .. خانتها دموعها لأول مرة بعد عودته .

جلس بجوار مكانها المفضل **كوبت** البيت .. عزف ذلك اللحن اليتيم الذي ابتدعه بجوار البئر .. عزفه مراراً .. عزفه

بحرقة .. عزفه بشجن وأسى ورجاء وأمل .. عزفه اعتذاراً .. عزفه استجداءً .. عزفه أسفاً .. ظل يعزفه أياما وليالي متواصلة .. لا مجيب .

أعلن عن نيته إقامة حفلة في أكبر ميادين الواحة كما اعتاد بين فينة وأخرى .. كان يعتقد انه بذلك يستميل صاحبه الغريب إلى صفه لعلمه بعشقه وإدمانه حضور هذه الحفلات .. كان دائماً ما يلمحه بين الحاضرين .. في كل مرة يتقمص جسداً جديداً .. لكنه سرعان ما يكتشفه من عينيه وما فيهما من ألق وهالة غريبة .. ما أن يراه حاضراً حتى يطلب من العازف الكهل أن يعزف له لحنه المميز ليرقص على وقعه .. لم يغب طيلة العامين الماضيين عن كل حفلاته .. اعتبر تلك الحفلة عربون اعتذار لما بدر عنه في غفلة منه .

لم يظهر الغريب في الحفل لا في أوله ولا في وسطه ولا في آخره .. حتى بعد أن تهيأ للرقص على وقع لحنه المميز المفضل لم يكن له أثر .. رقص تلك الليلة رقصاً غريباً ذكر الناس برقصه ليلة عرسه ..

كانت تلك رقصة الوداع .. لم يرقص بعدها ولم يقم حفلاً أيضاً .. علم أن الغمامة لن تزول .. وان الرد على كل رسائله المختلفة كان واحداً :

- " لا عودة " .

30

اجتاحه البؤس اجتياحاً ..

تغيرت أحواله وتبدلت .. ساءت وانحرفت .. طال شعر رأسه ولحيته .. اتسخت ثيابه .. لم يعد يحفل بأناقة مظهره ولا برائحته .. يطوف شوارع الواحة ليلاً ونهاراً على غير هدى .. يكلم نفسه ويعاتبها ويعاقبها أحياناً .. في البداية هابه الجميع وابتعدوا عنه وتأسفوا لحاله .. بعدها صار الأطفال يسيرون خلفه ويطاردونه ويزعجونه .

بكت أمه .. فتحت من جديد منابع دموعها .. سحت بغزارة .. لم تتوقف عن الجريان حزناً على ما آل إليه حال ابنها وعلى فقدها لحفيديها ..

يقال أن الشيخ ارسل له طالباً أن يأتيه .. لم يأبه لطلبه .. أرسل له من يأتي به عنوة .. رمى به في عين غسوف .. بالكاد نجى من الغرق .. بعد ذلك أخرجه أعوانه .. أصلحوا من هيئته .. قيده .. تلا عليه القران لوقت طويل .. قرأ عليه أذكاراً كثيرة .. طوق عنقه بحجاب من الجلد .. حل وثاقه وتركه بعدها .

كل ذلك لم يكن نافعاً .. لم يعده إليه صوابه ولا أخرجه من ذهوله .. صحيح أنه صار أكثر رزانة لكنه ظل ساهماً وحيداً .. يتمتم بأشياء مبهمة كأنه يحادث شخصاً أو أشخاصاً غير مرئيين إلا له .

الشيء الوحيد الذي لم يتغير فيه هو اتقانه للرقص في كل مرة يقام فيها عرس في الواحة .. كان الجميع ينتظره .. ما أن يتوسط الحلقة حتى يدب الحماسة في الجمع .. يرقص ما طاب له الرقص .. يغادر الحلقة فجأة كما ظهر فيها فجأة .

31

- ظل على هذا الحال عامين كاملين .. خارت قوته وضعف بدنه وفقد وسامته .. يسير في شوارع الواحة معلقا نايه على رقبته .. يجلس بين الفينة والأخرى ليعزف لحنه الأثير أمام كويت البيت متوقعاً ظهورها من جديد بعد أن عفت عنه وغفرت له .. لكنها لا تعفو ولا تغفر .

عانت أمه الأمرين خلال العامين .. ما أن يفقد الأمل من غفرانها حتى يغادر البيت باكياً مستجدياً .. يغيب أياماً ربما أسابيع عنها يطوف الشوارع والأزقة .. لا يعلم أحد كيف يأكل ولا ماذا يأكل ولا كيف يقضي حوائجه ولا أين ينام ولا كيف ؟.. ترسل خلفه من يأتيها به لتنظفه وتصلح من شأنه وتهذب ما استطاعت من شكله وهندامه .

تقول جدتي ذات يوم ظهر بعد أن اختفى لأيام .. أخذ يجري في الشوارع على غير عادته .. أثار غباراً كثيفاً خلفه وكذلك تساؤلات المارة .. اتجه إلى بيته .. صعد قفزاً إلى تمانحت البيت .. وقف وسطها وأخذ يرقص فيها ويرقص ويرقص ..

أخيراً توقف عن الرقص .. أزاح ستاري **الكوبت** ليجد طفله الصغير نائماً فيها وابتسامة صغيرة على محياه .

تقول جدتي إنه كان يرقص على أنغام لحنه .. حلف البعض أنهم سمعوا عزف الغيطة وضرباً للدفوف تتخللها وتتقاطع معها ضربات محكمة من اند كلال من أقصى مكان في الواحة .. استغربوا ذلك إذا لا توجد مناسبة تتوجب عزف الغيطة في هذا الوقت من النهار ولا في هذا الوقت من العام .

أما العازف الكهل فقد أقسم بأنه سمع العزف من بيته أيضاً لكنه جهل مصدره حتى صعد لسطح بيته فتبينه .. وعند سؤاله من أحد الفضوليين عن مهارة العازف أجاب : أنه عزف ماهر متقن ليس بعزف من عازفي الواحة إلا إذا كان عازفاً لم يفصح عن هويته وهوايته وموهبته بعد .

- يبدو أن الزوجة تقاسمت معه الذرية ؟

- نعم احتفظت بالفتاة وأعادت له الولد ليعيش مع أبيه وجدته .. اعتبرت ما ألت اليه حاله بعد هجرانه كفارة عن خطأه .. تقول

أمي إنه عاد له صوابه وأصبح اكثر رزانةِ واتزانا .. بل صار يختلط بالناس وعاد لسالف عهده قبل تلك الرحلة .

سألته سؤالا أخيراً كان لابد لي من سؤاله :

- كيف تسنى لجدتك جمع كل هذه المعلومات عن تلك الرواية بهذه الدقة ؟

لم يجب على سؤالي .. اكتفى بابتسامة .

نظرتُ في عينيه .. رأيت فيهما ألق غريب .. لم أنتبه له من قبل .. أجاب :

- إنها ابنته ومن صلبه .

أحد الطفلين كان جدي أما الآخر فقد استعادته أمه ولم نسمع عنه شيئ بعدها .

تمت بحمد الله

طرابلس - غدامس - جربة 2015م

إبراهيم عبد الجليل الإمام

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي .. من مواليد جوهرة الصحراء غدامس عام 1970 م .. خريج كلية تقنية الطيران والأرصاد الجوية .. نشر قصصه في صحف مختلفة منها صحيفة العرب اللندنية وصحيفة تورضا ، صحيفة غدامس ، صحيفة الحقيقة ، صحيفة الأيام ، صحيفة المختار ، صحيفة الأسبوع ، صحيفة قورينا ، صحيفة الناس ، صحيفة صناع الكلم ، صحيفة فسانيا ، صحيفة أخبار أجدابيا ، كما نشر انتاجه القصصي في العديد من المواقع الالكترونية .

صدر له :

قطرات من ذهب	قصص وأساطير
ألآم وآمال	قصص ومواقف
جمهورية العشل	مجموعة قصصية
سلطان يوم الماء	قصة مصورة
لها طلع نضيد	قصة مصورة
تحرير غسوف	قصة مصورة

رسالة من الرجل الميت	رواية
الشاغت	رواية
بوابة الصحراء	مجموعة قصصية

قريبا :

كنز الاسلاف	رواية
المطبات	من الادب الساخر
قطط تلتهم ذاتها	رواية
أشليد	رواية
آيت انج	قصة
آيت أدّا	رواية
أمم امثالنا	مجموعة قصصية
المثلث	قصة مصورة



إبراهيم عبد الجليل الإمام
مواليد جوهرة الصحراء غدامس 1970
قاص و كاتب و باحث في التراث



انتابه شعور غامض من هوية الغريب .. تأكد له ما حاك في صدره من أنه وقع فريسة تلك الملة التي تناصبهم العداء منذ حلوا بالواحة ويتحينون فرص الانتقام .. احد ما من رفاق القافلة اشار لهذا الاحتمال .. لكنه لم يعد يذكره الان .. ولا فائدة من اللوم .. انه بين ايديهم الان ... خياره الوحيد هو المضي في مغامرته .. ليس له خيار اخر .. هذا ما شعر به .. طلب منه ان يتبعه اشترط عليه ان لا يتحدث وان لا يلتفت خلفه ..